بنات الأفكار
في أدب المناقشة والحوار



تأليف

الدكتور مجدي باسلوم

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت لبنان



بنات الأفكار

في أدب المناقشة والحوار

ISBN 2-7451-4829-X

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية®

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

هاتف +961 5 804810/11/12 ص.ب. 9424 - 11 بيروت - لبنان
فاكس +961 5 804813 رياض الصلح - بيروت 2290 1107
http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com

بنات الأفكار
في
أدب المناقشة والحوار

تأليف

الدكتور مجدي باسلوم

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت
لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
٢٠٠٥ م. ١٤٢٦ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
هاتف: ١٢ / ١١ / ٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١ ٠٠ — ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١ ٠٠ — رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun-ilmiyah.com

الكتاب: بنات الأفكار في أدب المناقشة والحوار

BANĀT-U-L-ʾAFKĀR FĪ ADABUL-MONĀQAŠA WAL-HIWĀR

المؤلف: د. مجدي باسلوم

الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

عدد الصفحات: 208

سنة الطباعة: 2005 م

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الأولى

ISBN 2-7451-4829-x
9 782745 148292 90000

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد

نود في هذا التمهيد التعريج على قضيتين مهمتين:

الأولى: تدور حول سنة التعدد والاختلاف.

والثانية: تناقش الفرق بين مصطلح الحوار والمصطلحات المشابهة له.

وذلك في المبحثين التاليين:

المبحث الأول

حول سنة التعدد والاختلاف

من السنن الثابتة، والقوانين المطردة التي أودعها الله - عز وجل - الكونَ، وأراد للحياة أن تمضي وفقًا لها: «التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف»، وهذه الكلمات ترادف التغيير، وتضاد الثبات والوحدة، لقد خلق الله الناس ألسنة مختلفة وأجناسًا شتى وعقولًا متفاوتة في النظر والفهم والإدراك، فلا عجب أن نشأ عن هذا الاختلاف وخرج من رحم هذا التنوع «تعددية» شملت كافة جوانب الحياة ومستوياتها المختلفة؛ فظهرت الحضارات المختلفة، وتمايزت القوميات فيما بينها تمايزًا قائمًا على تعدد في الشرائع، والمناهج، والفلسفات، واللغات، والثقافات، وليس ثمة ما يجمع بينها إلا جامع الاشتراك في الإنسان الذي لا تمايز فيه ولا اختلاف.

«وعلى مستوى كل حضارة من الحضارات هناك تعددية في المذاهب، ومدارس الفكر وفلسفاتها، وتيارات السياسة وتنظيماتها، وقد تكون في بعض الحضارات تعددية في القوميات واللغات والأوطان... تتمايز وحدات التعددية في الخصوصيات المتعددة مع اجتماعها كلها في رابط الحضارة الواحدة وجامعها»[1].

---

(١) محمد عمارة، التعددية، نهضة مصر، ١٩٩٧، (ص٧).

إن «الوحدة» التي تعني الثبات، وتناقض «التعدد» صفة لازمة للذات الإلهية فحسب؛ فهي مقصورة على الله عز وجل دوما سواه من سائر الموجودات والمحدثات تلك التي تنهض في مختلف ميادين الحياة الإنسانية، والحيوانية، والمادية، والفكرية على التنوع والتعدد والتمايز، وتلك هي الرؤية الإسلامية لمسألة الوحدة والتعدد، وهي تمثل عند التحقيق ملمحًا بارزًا من ملامح العقيدة الدينية لدى المسلمين، وأساسًا من أسسها الثابتة، والتعدد بهذه المثابة سنة إلهية من سنن الخلق وآية من آيات الله عز وجل لن تجد لها تبديلًا ولا تحويلًا، فكل ما عدا الذات الإلهية «الحق.. واجب الوجود» من سائر أصناف «الخلق.. الموجودات» وكذلك سائر ميادين العمران البشري والفكر الإنساني قائم على الازدواج والتعدد والتركيب[1].

وتحفل نصوص القرآن الكريم دستور الإسلام الأول بنماذج للتعدد والاختلاف من السنن الكونية الثابتة التي لا يُتصور أن يجحدها أحد أو يشكك فيها، توشك أن تشمل سائر جوانب الحياة على الأرض، وتغطي مناحيها المتشعبة قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم]فالآية الكريمة تشير إلى تعدد الأجناس واختلاف القوميات، وتعد ذلك آية من آيات الله في الاجتماع الإنساني.

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات] إشارة إلى تعدد الشعوب، وتنوع القبائل، والقرآن يدعو إلى إقامة علاقات التعارف، ومد جسور التواصل بين الفرقاء والمتمايزين، فلا جرم كانت تعددية التمايز إلى شعوب وقبائل قائمة في إطار جوامع التعارف بين بني

(١) ينظر: السابق، (ص ٦).

الإنسان. إنها التعددية التي تثمر تمايزًا ضروريًا تحتاجه الإنسانية في نموها واكتمالها.

وثمة جانب آخر من جوانب التعددية والاختلاف لفت إليه القرآن لفتًا قويًا، ودعا الناس إلى تدبر حكمته والإفادة من ثمرته، ذلكم هو تعدد الشرائع والمناهج التي ترادف «الحضارات والثقافات».

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود].

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان وكفران؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ﴾ [هود] أي: ولا يزال الاختلاف بين الناس في أديانهم واعتقاداتهم مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم.

ولقد تحدث المفسرون عن هذا «الاختلاف» وتلك التعددية في الشرائع باعتبارها علة الخلق.

قال الحسن البصري: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ أي: وللاختلاف غلتهم[(١)].

وقال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

فالتعددية ها هنا حافز للتنافس في الخيرات، وباعث على الاستباق في الطيبات، والسبب في التدافع الذي يُقَوِّم ويرشد مسارات أمم الحضارات على

(١) ينظر: تفسير ابن كثير، دار الحديث، القاهرة (٢/ ٤٤٦).

دروب التقدم والارتقاء، فهي المصدر والباعث على حيوية الإبداع الذي لا سبيل إليه إذا غاب التمايز وطمست الخصوصية بين الحضارات[1].

ولقد شهد التطبيق العملي لشريعة الإسلام وقانونه نماذج كثيرة لتلك التعددية وذلك الاختلاف، ولم يكن هذا التطبيق سوى «تاريخ الدولة الإسلامية» التي تمثل فيها التعدد بأجلى صوره، وأوضح أشكاله؛ فدولة رسول الله ﷺ في المدينة كانت نسيجًا اجتماعيًا متداخلًا، فثمة المسلمون واليهود، والمسلمون أنفسهم قسمان: مهاجرون وأنصار، وقد جمع هذه الأمشاج المختلفة ونظم علاقاتها البينية دستور محكم وقانون دقيق تمثل في الصحيفة التي نصت موادها على: «أن المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أمة واحدة من دون الناس، وأن اليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن على يهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله»[2].

إن الإسلام حين نظر إلى التعددية على أنها سنة إلهية مركوزة في أصل الحياة، أرسى في المقابل مبدأ مهمًا يضبط حدودها ويوجه طرقها، ويجعلها عنصرًا صالحًا من عناصر البناء والإعمار، هذا المبدأ هو «الحوار»، وبدونه تستحيل التعددية خصومة ضارة، وعداوة تهلك الأفراد والمجتمعات جميعًا.

إن دعوة الإسلام إلى «الحوار»، وحثه على التوسل بآلياته، واصطناع وسائله تنبئ عن إيمانه بسنة التعدد والاختلاف، وتخبر عن تقديره للآخر

---

(١) ينظر: محمد عمارة، مصدر سابق ص (٦، ٧).
(٢) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمع وتحقيق: محمد حميد الله الحيدرآبادي، طبعة القاهرة ١٩٥٦ ص (١٥ - ٢١).

«وحفاوته بما ينتهي إليه من آراء وتجارب وأفكار وخبرات في جوانب الحياة المختلفة المادية والروحية».

لقد سبق الإسلام المدنيات الحديثة، والحضارات المعاصرة حين اعترف بالآخر، وأفسح له مجالًا لإبداء الرأي والنظر في المسائل المختلفة، وحين دعا إلى التواصل معه وحواره ومجادلته بالتي هي أحسن، إن إعطاء الإسلام الحرية لأصحاب الديانات المخالفة في ممارسة شعائرهم الدينية يعد من أوضح الأمثلة على اعتراف الإسلام بحق الآخر في التعبير عن أفكاره، وعقائده، وتوجهاته، وثقافته وعاداته وتقاليده المختلفة.

* * *

المبحث الثاني

الفرق بين الحوار والجدال والمناظرة والمناقشة

ثمة مصطلحات عدة ترتبط بمصطلح الحوار ارتباطًا وثيقًا، بل ربما عدها البعض ضروبًا من الحوار وألوانًا منه، وسوف نتعرض لها فيما يلي:

الجدل في اللغة يقصد به المعارضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من: جدل الحبل، أي: أحكم فتله، فكأن كلا المتجادلين يفتل الآخر عن رأيه[(١)].

وفي الاصطلاح: عبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه[(٢)].

وقيل: هو المنازعة لا لإظهار الصواب بل لإلزام الخصم.

وقيل: هو علم يقوم على مقابلة الأدلة لإظهار أرجح الأقوال.

وقيل: هو علم يقتدر به على حفظ أي وضع يراد ولو باطلًا، وهدم أي وضع يراد ولو حقًّا[(٣)].

وقد ورد لفظ «الجدل» في القرآن في صيغ مختلفة واشتقاقات متباينة، فجاء في صورة الفعل المضارع والماضي، كما جاء أمرًا واستفهامًا، وكذلك جاء مصدرًا في صيغتين «جدل، جدال» بيد أنه لم يرد في صيغة «مجادلة» على وزن مفاعلة.

---

(١) ينظر: مجد الدين الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (٢/ ٣٧٣).

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين (٣/ ١٢٧).

(٣) ينظر: أحمد مكي، أدب البحث والمناظرة، جمعية التأليف والترجمة والنشر ص (٥).

والجدل في القرآن نوعان:

النوع الأول: الجدل المحمود: وهو ما كان القصدُ فيه إظهار الحق وتبيين الصواب.

ولقد دعا القرآن الكريم إلى هذا اللون من الجدل في غير آية؛ قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل] فقوله: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[1] [طه].

ويقول الأستاذ سيد قطب في تفسير هذه الآية:

«على هذه الأسس يرسى القرآن الكريم قواعد الدعوة ومبادئها ويعين وسائلها وطرائقها، ويرسم المنهج للرسول الكريم والدعاة من بعده لدينه القويم».

ثم يستطرد قائلا: «والدعوة تكون بالحكمة والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم، وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق وتتعمق المشاعر بلطف لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل وحسن نية، فإن الرفق في الموعظة كثيرًا ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، وأما الحكمة فتكون بالجدل بالتي هي أحسن، بلا تحامل على المخالف، ولا ترذيل له ولا تقبيح حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق، فالنفس

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٧٢).

البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة»[1].

هذا ولقد تجادل المسلمون وتناقشوا في أمور كثيرة مع رسول الله ﷺ، وكانت تلك المناقشات والحوارات نموذجًا رفيعًا لأدب الجدل والمناقشة الذي أرسى قواعده وشاد دعائمه القرآن الكريم حينما علم الصحابة أدب الحديث مع رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات].

ومن الجدل المحمود كذلك: دعوة القرآن الكريم إلى مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، أي باللين والحكمة والاستناد إلى أدلة العقل وبراهين المنطق، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝٤٦﴾ [العنكبوت].

ومنه قوله تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة].

النوع الثاني: الجدل المذموم، ويقصد به المخاصمة بالباطل، والرغبة في إفحام الخصم، والظهور عليه لمجرد الغلبة والانتصار، لا لتحري الحق أو التوصل إلى الرأي الصواب، ورائد هذا النوع من الجدل والباعث عليه الهوى وشهوة النفس الباطنة التي تدفع العقل بعيدًا عن جادة الصواب، وتدعه نهبًا للآراء المنحرفة والأفكار الضالة.

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، المجلد الرابع: (ص٢٣٠١، ٢٣٠٢)، ط دار الشروق.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩﴾ [الحج].

وقال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥﴾ [غافر].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقد وقع الخلاف بين العلماء في المقصود بالجدال في هذه الآية:

قيل: الجدال بمعنى المراء حتى تغضب مسلمًا فينتهي إلى السباب. قاله ابن مسعود وابن عباس وعطاء.

وقيل: الجدال بمعنى السباب. قاله قتادة.

وقيل: الجدال بمعنى المماراة في الشهور.

وقيل: الجدال يعني أن تقول طائفة لأخرى: حَجُّنا أبرُّ من حَجِّكم.

وقيل: الجدال بمعنى الفخر بالآباء(١).

واتفقت هذه الآراء على أن الجدل المقصود في الآية هو الجدل المذموم الذي لا طائل من ورائه، فلا يثمر إلا العداوة والبغضاء.

وأشار أحد الباحثين إلى الفرق بين الحوار أو المحاورة والجدال فقال:

فأما المحاورة فهي عندهم مراجعة الكلام، يقال: حاورته أي راجعته

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ٤١٠).

الكلام، وتحاور القوم أو الجماعة راجعوا الكلام بينهم، فمادة المحاورة تدور حول الرجوع.

وأما المجادلة: فهي كما يفسرها اللغويون: اللدد في الخصومة، وما يكون في نحو من ذلك، ولكنها في كل صورة تدور حول التخلص بالكلام.

ويمكن أن نخرج من كلام اللغويين بفارق واضح بعض الوضوح في مدلول اللفظين:

فالجدال والمجادلة والجدل (بتحريك الدال) كل ذلك ينحو منحى الخصومة، بمعنى أن استعمال هذه المادة يكاد يلزم الخصومة في أي صورة من صورها، ولو بمعنى التمسك بالرأي والتعصب له[1].

وأما المحاورة: فهي مجرد مراجعة الكلام بين المتكلمين، ولا تلزم فيه صورة الخصومة، وإنما تغلب عليها صورة الكلام المتبادل بين طرفين في أسلوب لا تقصد به الخصومة، أو لا يراد به بالضرورة الاتجاه إلى الخصومة ولكن جدال بالتي هي أحسن.

فالجدال والحوار يشتركان في إيضاح الحق إذا أريد بالجدال معرفة الصواب، ويفترقان في أن الجدال السيئ يطمس معالم الحق ويعمد إلى مناصرة الباطل.

وأما المناظرة: فهي لغةً مشتقة من النظير ومن النظر بمعنى الإبصار، أو من النظر بمعنى الإنظار، أو بمعنى الفكر، والمقابلة، والتناظر هو التراوض في الأمر، فنظيرك: هو الذي يراوضك[2].

يقال: تناظر القومُ، نظر بعضهم إلى بعض، وتناظروا في الأمر: تجادلوا وتراوضوا.

---

(١) أسلوب المحاورة د/ عبد الحليم حفني، (ص ١١).
(٢) لسان العرب «ن ظ ر».

ويقال: دُورهم تتناظر: تتقابل[1].

وأما المناظرة في الاصطلاح فهي: المدافعة لإظهار الحق. وقيل: هي الفكر المؤدي إلى علم أو غلبة ظن.

فالمناظرة حسب هذا التعريف الاصطلاحي لها ضرب من المحاورة بين شخصين مختلفين، يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله، وإبطال قول الآخر.

أنواع المناظرة:

يمكن أن نقسم المناظرة نوعين:

النوع الأول: المقابلة

ويقصد بالمقابلة هنا: المقابلة الشخصية والاتصال الشخصي، ولهما نتائج مثمرة نافعة؛ إذ يتمكن المتقابلان من أن يؤثر كل منهما في آراء الآخر وأفكاره، ويعدل من سلوكه وتصرفاته، بأن يطلب إعادة الكلام مثلًا أو توضيحه وبيان معناه أو الزيادة عليه.

والمقابلة الشخصية لكي تؤتي ثمارها المرجوة، يجب أن يُعنى كل متحدث باختيار كلماته وصقل أسلوبه في الخطاب، ومراعاة المستوى العقلي والعلمي للمخاطب[2].

وحرص رسول الله ﷺ على اصطناع هذه الآلية المهمة من آليات الحوار في الدعوة إلى الإسلام، فكان يقابل المشركين - رغم ما أصابه منهم من أذى واضطهاد - ويناظرهم ويجتهد في إقناعهم.

فحين دعا عقبة بن أبي معيط النبي ﷺ إلى وليمة في بيته، أجاب

---

(١) المعجم الوسيط «ن ظ ر».
(٢) ينظر: د/ فتح الباب عبد الحليم، د/ إبراهيم حفظ الله، وسائل التعليم والإعلام، ط عالم الكتب ١٩٦٨، (ص ١٥٢).

رسول الله ﷺ دعوته، فأسلم عقبة وشهد بالتوحيد[1].

النوع الثاني: المحاجة:

وهي ضرب من ضروب المجادلة العقلية، والمحاورة العلمية، حيث يروم كل واحد من المتناظرين رد الآخر عن حجته وتشكيكه فيها، حتى يتمكن من توكيد حجته وتثبيت دعواه.

وقد وردت المحاجة في القرآن الكريم وأُريد بها عدة معان منها[2]:

أ - المنافرة والمخاصمة؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ب - البرهان والدليل؛ قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى].

والحجة هنا من المؤمنين مع الكافرين، وهي بمعنى البرهان.

وقد تكون من الكفار بحسب اعتقادهم الفاسد قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية].

والحجة هنا بمعنى الدليل.

وعرض القرآن الكريم في غير موضع لنماذج من محاجة الأنبياء لقومهم، فمن ذلك: محاجة رسول الله ﷺ لوفد نصارى نجران؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما:

---

(١) السيرة الحلبية (١/ ٣٥٣).
(٢) أدب الحوار في الإسلام، مصباح منصور (ص ٦٣٨).

«أن رسول الله ﷺ دعا وفد نجران إلى الإسلام، فقال العاقب[(١)] واسمه: «عبد المسيح» وأبو حارثة بن علقمة: قد أسلمنا يا محمد، فقال: إنكما لم تسلما، قالا: بلى قد أسلمنا قبلك، قال: كذبتما، يمنعكما من الإسلام ثلاث فيكما عبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير، وزعمكما أن لله ولدًا، ثم سألهم وسألوه: فلم تزل به وبهم المسألة؛ حتى قالوا له: ما تقول في عيسى بن مريم؟ فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى يسرنا إن كنت نبيًا أن نعلم قولك فيه» إلى آخر المناظرة ولقد جاء فيها:

«أن نصارى نجران قالوا له: يا محمد فيما تشتم صاحبنا! قال: من صاحبكم، قالوا: عيسى بن مريم، تزعم أنه عبد. قال: أجل: إنه عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. فغضبوا وقالوا: لا ولكنه هو الله نزل من ملكه فدخل في جوف مريم ثم خرج منها. فأرانا قدرته وأمره، فهل رأيت قط إنسانًا من غير أب؟»[(٢)].

فنزل قول الله تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران].

ومع وضوح الأدلة التي ساقها القرآن الكريم وحاج بها الرسول ﷺ وفد نجران إلا أنهم استمروا في لجاجهم وعنادهم فأمر الله رسوله أن يسلك بهم طريقًا آخر، وهو المباهلة فأنزل الله قوله: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران].

ولما نزلت تلك الآية دعا رسول الله ﷺ عليًا وفاطمة والحسن والحسين، فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي[(٣)]، فوجل الوفد واضطربوا حينما دعاهم النبي

---

(١) العاقب: أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم.
(٢) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: محمد بن يوسف الصالحي جـ٦ (ص٦٣٤) المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
(٣) أخرجه مسلم (٣٢/ ٢٤٠٤).

للمباهلة وتشاوروا فيما بينهم، وقالوا: «والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدًا لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم ما لاعَنَ قوم نبيًا قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم»(١).

ومن نماذج المحاجة التي ذكرتها كتب السنة، تلك المحاجة التي وقعت بين آدم وموسى عليهما السلام؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال له آدم: أنت يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدّره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟! فقال النبي ﷺ: فحج آدم موسى»(٢).

وأما المناقشة فقد شاع بين الناس - لا فرق في ذلك بين العامة والمثقفين - استخدام لفظة «المناقشة» يريدون بها معنى المحاورة، وهو استخدام خاطئ؛ لأن «المناقشة» عند اللغويين تعني: استقصاء الحساب، أي: استيفاءه، والحساب يكون عادة بين طرفين، بيد أن استيفاءه يكون لصالح أحدهما فحسب، فمناقشة أحد الطرفين للآخر لغة تعني أن يستقصي محصيًا ومستوعبًا كل ما له لدى الطرف الآخر؛ واستشهد الزمخشري في «أساس البلاغة» لهذا المعنى بقول عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «ومن نوقش الحساب عذب»(٣).

والمعنى: من أحصيت أعماله واستقصيت ليحاسب عليها حسابًا عاديًا دون

---

(١) تفسير ابن كثير: جـ١ (ص ٦٨)، ط المكتبة السلفية.
(٢) أخرجه البخاري (١١/ ٥٠٥) حديث (٦٦١٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٢) حديث (١٣/ ٢٦٥٢).
(٣) أخرجه البخاري (١/ ١٩٦) (١٠٣)، (٦٥٣٦) (٦٥٣٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٤) (٧٩/ ٢٨٧٦).

أن يتداركه عفو الله وغفرانه، فلا بد أن يصيبه العذاب.

وهكذا فإن استخدام طائفة من المثقفين وأهل الفكر لفظة «المناقشة» مرادفة للمحاورة، خطأ لغوي بيّن، نشأ من ذيوع كلمة «المناقشة» وكثرة استخدامها بين الناس.

❊ ❊ ❊

الفصل الأول

أصول ومرتكزات الحوار في الإسلام

ألمحنا آنفًا إلى أن الإسلام قد نظر إلى «التعدد، والتنوع، والتمايز، والاختلاف» على أنها سنن إلهية تحكم الحياة وتحدد مسار التاريخ الإنساني، وأن من أراد الوحدة التي لا تركيب فيها فلقد أراد محالًا مناقضًا للفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي فطرة التعدد.

إن هذه الحقيقة التي تشهد لها نصوصُ القرآن والسنة تؤكد بما لا يدع مجالًا للشك أن الإسلام لم يُنكر الآخر - كما يزعم خصومه وأعداؤه المناوئون له - بل اعترف به ودعا إلى التواصل معه من خلال آلية محكمة وأداة راشدة هي «الحوار»، وهي الأداة النافعة للتقريب بين الخصوم والفرقاء وتحويل الاختلاف والتعدد إلى تكامل مثمر وتعاون مفيد.

* * *

المبحث الأول

الأصول العامة لمنهج الحوار الإسلامي

يقوم «الحوار الإسلامي» مع الآخر على جملة من الأصول أو الضوابط والمحددات، تمثل في مجموعها الركائز الرئيسة لمنهج الحوار الإسلامي، فتحكم أسلوبه وتعين مقاصده وأهدافه. وفيما يلي نعرض لأبرز هذه الضوابط والمحددات:

أولاً: تكريم الله للإنسان:

تقطع آيات القرآن الكريم بأن الإنسان مخلوق قد كرّمه الله، وآثره على كل مخلوقاته، وسخر له ما في الكون جميعًا لخدمته ولتمكينه من أداء الدور المنوط به وهو عمارة الأرض والارتقاء بالحياة؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء].

وهذا التكريم الإلهي حامل للمسلمين على احترام الإنسان بوصفه إنسانًا بغض النظر عن دينه أو لونه أو جنسه، ومن مظاهر احترامه، احترام حقه في التعبير عن رأيه وأفكاره، وحقه في المحاورة ما دام ذلك في حدود الأعراف والقيم، ودونما اعتداء.

ثانيا: الأخوة الإنسانية:

حرص الإسلام حرصًا بالغًا على التأكيد على وحدة الجنس البشري، فكل البشر ينتمون إلى أب واحد وأم واحدة فهم إخوة في النسب؛ تجمعهم قرابة الدم؛ ولا اعتبار لاختلافهم في اللون أو العرق أو اللغة... إلخ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء].

ومناط التفاضل بين الناس في المنظور الإسلامي: التقوى والعمل الصالح النافع؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

وَعدَّ القرآن كذلك التباين بين الناس في الجنس واللغة واللون آية من آيات الله؛ لإعمار الكون والنهوض بالحياة؛ قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم].

والإنسان مستخلف في الأرض، وقد فاضل الله عز وجل بين بني آدم في القدرات والملكات؛ ليكون التكامل بينهم في ذلك سبيلًا إلى عمارة الأرض؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام].

والإنسان مسئولٌ عن عمله ومحاسب عليه ثوابًا أو عقابًا، وهو ما عبّر عنه القرآن الكريم بحمل الأمانة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب].

وعن حرمة النفس الإنسانية قال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ [المائدة: ٣٢].

ولعل القارئ الكريم قد لاحظ أن الخطاب القرآني في هذه الآيات - وغيرها كثير - موجه إلى الإنسان من حيث كونه إنسانًا دونما اعتبارٍ للونه أو لغته أو ديانته، فالخطاب إذاً يستوي فيه المسلم وغيره.

وقد عبّر رسول الله ﷺ عن هذه المعاني السابقة في خطبة الوداع قائلًا: «أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب»(١).

وروى عنه ﷺ أنه قال: «ليس لعربي فضل على عجمي ولا لأبيض فضل على أسود إلا بالتقوى»(٢).

وقد نهى رسول الله ﷺ عن التخاصم، وحث على التآخي والتواصل، فقال: «لا تخاصموا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانًا»(٣).

إن تقاليد الإسلام - كما يقول البرفسور - راشيروك وليامز - «تشمل مبادئ المساواة بين الأرواح الإنسانية أمام الله، وتقرر أواصر الأخوة العالمية بين جميع المؤمنين بغير نظر إلى العنصر أو اللون، كما تقرر فريضة الدفاع عن الضعيف وحمايته ممن يجورون عليه وإغاثة المعوزين والمحرومين»(٤).

إن مبادئ الإسلام تنابذ العنصرية وتأبى التمييز بين البشر، ذلك التمييز المبني على فوارق الجنس أو العرق أو اللون أو اللغة... إلخ.

قال رسول الله ﷺ : «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»(٥).

يقول الدكتور إدريس العلوي العبدلاوي: «إن الكرامة الإنسانية يقدرها

---

(١) ذكره الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٦٦) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٥٦٥٢)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٦١٢).
(٢) انظر التخريج السابق.
(٣) أخرجه البخاري من رواية أبي هريرة (١٠/ ٤٨٤) حديث (٦٠٦٦)، ومسلم (٤/ ١٩٨٥) حديث (٢٨/ ٢٥٦٣).
(٤) السلام في الإسلام، أحمد فراج، بحث غير منشور (ص ٢١).
(٥) أخرجه أبو داود (٥/ ٣٤٣) حديث (٥١٢١) وقال المنذري: قال أبو داود في رواية ابن العبد هذا مرسل، وأخرجه النسائي (٧/ ١٢٣).

القرآن والسنة لكل من يتحقق فيه معنى الإنسانية. لقد أكد الإسلام كل ما جاءت به الرسل والكتب المنزلة، ولم ير أي مميز عنصري بين بني الإنسان؛ إذ ليست فروق الجنس واللون واللغة سوى مظهر لحكمة الباري عز وجل، ولم يخل الإسلام من حلول نابعة من عالمية فعالة ومعارف شاملة وضبط رصين لمسار الحياة الإنسانية بصورة تؤلف بين الشعوب والحضارات والأجناس واللغات واللهجات المختلفة.

ولعل أبرز هذه المبادئ اعتبار المجتمع الإنساني كيانًا واحدًا، بل أسرة واحدة يسودها نظام متكامل يضمن حرية الفرد وحقوقه طبقًا لمقتضيات الشريعة. كما يقرر تكافل أفراد الأمة والمجتمع في نطاق مسئولية جماعية ومواجهة مشتركة بناءة لمتطلبات العصر مع فرض احترام وحقوق الأقليات غير الإسلامية، داخل المجتمع الإسلامي ضمن تسامح عادل واستفادة كاملة من موارد الدولة.

لقد امتد الخلق السياسي وروح التسامح والحس بالمواطنة الإنسانية حيثما امتدت معاملات الدولة الإسلامية، ومهما تناءت التخوم، دون أي اعتبار للمصالح غير المشتركة أو ما يمكن أن يجنيه هذا الجانب من مكاسب على حساب الجانب الآخر. فالروابط الإنسانية لا يمكن أن نقيّمها في المفهوم الإسلامي بالمكاسب المادية، ويكفي هنا أن نشير على سبيل المثال إلى الدور الذي اضطلع به يهود المغرب بفاس العاصمة الروحية للمملكة المغربية حيث أقاموا في ظل الإسلام... مراكز للتلمود في العالم باركها ملوك الغرب طوال ألف عام - والتفو حول جامعة القرويين التي ضمت طلبة من أوروبا منذ القرن الرابع الهجري، وفي طليعتهم جيربير GERBER الذي شغل منذ عام ٩٩٩ ميلادية كرسي البابوية كما أجمع على ذلك مؤرخو المسيحية أكبر حماة طائفة الفرنسيسكان FRANCIECANE التي خولها امتيازات لم تجرؤ أمة مسيحية على المطالبة لها به.

إن الأسس التي قامت عليها دعوة الإسلام تعتبر الناس أمة واحدة، لا تفرق بينهم الأجناس والألوان واللغات والعصور وأنهم خلقوا ليتعارفوا ويتعاونوا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣].

كما يسعى الإسلام لتوحيد البشرية على ما فيه صلاحها، وتدعو تعاليمه وتشريعاته إلى الخير بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل المخالفين بالتي هي أحسن. فلا ضغط على الحريات، ولا إكراه في الدين، ولا فرض للأفكار والمعتقدات.

ثالثًا: الاعتراف بالأديان السابقة:

من الضوابط المهمة التي يرتكز عليها «منهج الحوار الإسلامي» مع الآخر: الاعتراف من حيث المبدأ بالديانات السماوية السابقة، وتأكيد وحدتها في الأصول والأركان العامة؛ قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأكمله وزينه إلا موضع لبنة في ركن من البيت، فصار القوم يطوفون به ويعجبون به ويقولون: ما أجمله ما أحسنه، لولا وضعت هذه اللبنة، فأنا هذه اللبنة وأنا خاتم النبيين»(١).

وينطوي الاعتراف بالديانات السابقة على الاعتراف بالرسل السابقين على النبي الخاتم محمد ﷺ؛ قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾

---

(١) أخرجه البخاري من حديث جابر بن عبد الله (٦/ ٥٥٨) حديث (٣٥٣٤)، ومسلم (٤/ ١٤٩٣) حديث (٢٣/ ٢٢٨٧).

[البقرة: ٢٨٥].

فنجد الإسلام - مثلًا - يعترف بموسى وهارون - عليهما السلام - ورسم لهما القرآن الكريم صورة مشرقة مع أن اليهود لا يؤمنون بنبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام.

فلنتأمل الصورة التي رسمها القرآن لموسى - عليه السلام -: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم]، ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف]، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء].

«تلك هي الصورة القرآنية التي صنعت وصبغت الثقافة الإسلامية تجاه أنبياء اليهودية وشريعتها وكتابها.. فهل يستطيع حتى أكثر حاخامات اليهودية الأرثوذكسية تعصبًا، أو أشد علمانييها تحررًا أن يجد شيئًا من ذلك، أو شبيهًا بشيء من ذلك في تصورات اليهود وثقافتهم عن الآخر، وبخاصة إذا كان هذا الآخر هو الإسلام والقرآن ورسول المسلمين وأمة الإسلام وحضارتهم وتاريخهم»(١).

وقد عقد الدكتور صوفي أبو طالب مقارنة دقيقة بين الديانات السماوية الثلاثة: الإسلام واليهودية والمسيحية، انتهى منها إلى أنها تتفق فيما بينها في الأصول والأركان العامة، وإن اختلفت في الأحكام التفصيلية وجزئيات الشرائع؛ قال: فالديانات السماوية الثلاث خرجت من مشكاة واحدة، ومن ثم اتفقت في الأصول والجوهر، وإن تباينت في التفصيلات والجزئيات. فهي كلها تحض على الأخلاق الفاضلة، وتنهى عن ارتكاب الكبائر، فالوصايا

(١) د. محمد عمارة، الإسلام والآخر (ص ٢٦، ٢٧).

العشر التي وردت في التوراة تقول «أنا هو الرب إلهك. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. . . لا تنطق باسم الرب إلهك باطلًا. . . أكرم أباك وأمك. . . لا تقتل ولا تزن ولا تسرق ولا تشهد على قريبك شهادة زور ولا تشته امرأة قريبك ولا تشته بيت قريبك ولا حقله ولا عبده ولا أمته. ولا كل ما لقريبك.» (تثنية: الإصحاح: ٥: ١ - ٢١) والإنجيل بعد ما ردد هذه الأحكام زادها إيضاحًا وتفصيلًا[(١)].

والقرآن الكريم والسنة النبوية أقرت كل هذه الأحكام وزادت عليها، وتتماثل الديانات الثلاث في أسس العبادة، فهي كلها تأمر بالصوم والصلاة والزكاة، وإن اختلفت في مواعيد أدائها ومقدارها وكيفية هذا الأداء. كما أنها تقترب من بعضها في شئون الأخلاق والفضيلة. . . إلخ، ولكنها تختلف في أن الديانات اللاحقة تعترف بما سبقها من ديانات، ولكن الديانات السابقة لا تعترف بما جاء بعدها. فالإسلام خاتم الرسالات السماوية، يعترف بكل من المسيحية واليهودية. بينما المسيحية تعترف باليهودية السابقة عليها «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل»[(٢)].

ولكن المسيحية لا تعترف بالإسلام الذي جاء بعدها واليهودية لا تعترف بالمسيحية ولا الإسلام؛ لأنهما جاءا بعدها.

ومن ناحية أخرى، يختلف مضمون الدين ونوع وجنس المخاطبين به في الديانات الثلاث فاليهودية خاصة ببني إسرائيل؛ ولذلك تميز في الخطاب وما يتضمنه من حقوق وواجبات بين اليهودي وغير اليهودي.

ومن أمثلة ذلك أنها تحرم الزواج بين اليهودي وغير اليهودي، وتبيح الاقتراض بفائدة لغير اليهودي، وتحرمه بين اليهود - ويزيد من أهمية تمييز اليهودي على غيره أن الشريعة اليهودية كانت تنظم شئون الدين والدنيا معًا؛ والجمع بين الدين والدنيا أدى إلى أن الديانة اليهودية تحيط بكل أمور

(١) إنجيل متى، الإصحاح: ٥: ١٧ - ٤٨ .
(٢) إنجيل متى، الإصحاح: ٥: ١٧ .

الناس في المجتمع. كما أن تمييز اليهودي على غيره أدى إلى سيادة العصبية الدينية.

والمسيحية تقوم على مبدأ الفصل بين الدين والدولة؛ إعمالًا لقول السيد المسيح عليه السلام (ردوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله) ومن ثم اقتصرت على الهداية الروحية والأخلاقية وتنظيم شئون العبادة؛ ولذلك انحصر أثرها على هذه الجوانب تاركة تنظيم الأمور الدنيوية للدولة. ولكن المسيحية مثلها في ذلك مثل الإسلام وعلى خلاف اليهودية، تخاطب البشر أجمعين دونما تمييز بين شعب وآخر. ونتيجة لذلك اختلفت النظم الدنيوية، سياسية واقتصادية، في المجتمعات التي تدين بالمسيحية، وإن كانت كلها تتلاقى فيما يخص شئون العبادة والجوانب الروحية والأخلاقية. أما الإسلام فهو يتلاقى مع المسيحية من حيث كونه ديانة عالمية تخاطب البشر كافة دونما تمييز بسبب العرق أو الدين أو اللغة.... إلخ، ويتلاقى مع اليهودية في أنه تنظيم لشئون الدين والدنيا معًا. ومن ثم أحاط بكل صور سلوك الناس في المجتمع فكان أثره عميقًا في النفوس.

وإذا كان الإسلام قد اعترف بالأديان السابقة، وجعل من شرائط الإيمان به كدين الإيمان بجميع الرسل السابقين على رسول الله ﷺ - فإنه في الوقت نفسه كفل لأتباع هذه الأديان حرية العقيدة؛ بقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، كما قرر الإسلام كذلك مبدأ المساواة بين المسلمين وأهل الكتاب في الحقوق والواجبات، وقد عبرَّ الفقهاء عن هذا المبدأ بقولهم: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»(١).

---

(١) ينظر: صوفي أبو طالب، موقف الإسلام من غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية، بحث منشور ضمن أعمال المؤتمر العام التاسع للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٩٧م (ص ١٧٠، ١٧١).

وحفلت نصوص القرآن الكريم والسنة الصحيحة بكثير من الآيات والأحاديث التي تأمر بالإيمان بالله الواحد وكتبه ورسله، نجتزئ منها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة].

تلك هي صورة الآخر غير المسلم في مرآة الإسلام، فهو يعترف به ويمنحه مشروعية الوجود والبقاء، ويكفل له الحرية اللازمة لممارسة طقوسه وأداء شعائره.

فإذا ذهبنا نقارن بين خصائص هذا التصور الإسلامي للآخر ونظيره لدى اليهود مثلًا، وجدنا أن اليهود يرفضون الآخر، وتنهض نظرتهم إليه على أساس من العنصرية.

يزعمون أنهم «شعب الله المختار» وأنهم «أبناء الله وأحباؤه» وأنه لن يدخل أحد الجنة إلا هم ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] «والتزم اليهود موقف الكيل بمكيالين منذ انحرافهم عن شريعة موسى عليه السلام، واستبدال الشريعة العنصرية التي كتبوها في التلمود بالشريعة الموسوية»(١).

والممارسات التاريخية والعملية لليهود مع الآخرين تجسد هذا. واعتمدوا في تعاملهم مع الآخرين على الكذب والخداع ونقض العهود، حتى غدا ذلك سنة متبعة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

(١) محمد عمارة، الإسلام والآخر ص ٣٠، ٣١ .

﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥] ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

بل وصل باليهود الأمر في إنكارهم للآخر إلى «إمكانية قتل جميع غير اليهود المنتمين إلى شعب عدو، أو حتى ضرورة قتلهم، ويجرى الترويج العلني لهذه الفكرة منذ سنة ١٩٧٢م؛ لتوجيه الجنود الإسرائيليين المتدينين. وأول نصيحة رسمية من هذا النوع جاءت في كراس نشرته قيادة المنطقة الوسطى في الجيش الإسرائيلي - التي تقع الضفة الغربية تحت سلطاتها - يقول الحاخام المسئول - الحاخام العقيد أ. فيدان (زيميل) - في الكراس: «في حالة احتكاك قواتنا بمدنيين خلال الحرب، أو خلال مطاردة حامية، أو غارة، إذا لم يتوافر دليل بعدم إلحاقهم الأذى بقواتنا هناك إمكانية لقتلهم، أو حتى ضرورة للقيام بذلك حسب الهالاكاه، بل تحض الهالاكاه على قتل حتى المدنيين الطيبين»[(١)].

وتأمل نصوصًا من كتاب اليهود المقدس: «لن تترك حيًا أي شيء يتنفس» (تثنية: ٦٠: ٦١) «والآن اقتل كل ذكر بين الصغار، وكل امرأة عرفت رجلًا ضاجعها» (الأعداد: ١٧) ونصًا من التلمود: «لا يجب إخراج غير اليهود من بئر، أو دفعهم في البئر» أي: يجب عدم تسبب اليهودي بقتل غير اليهود ما دام ليس محاربًا لهم، ولكن يحظر إنقاذ حياتهم إذا كانوا على مشارف الموت[(٢)].

تأمل هذه النصوص وقارن بينها وبين قول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦٠].

تلك صورة مصغرة لما عليه اليهود من إنكار الآخر، وبخاصة إذا كان هذا

---

(١) السابق ص ٣٢، ٣٣.
(٢) ينظر: السابق، ص ٣٦.

الآخر مسلمًا، برغم اعتراف الإسلام بهم وبأنبيائهم ورسلهم وكتبهم.. إننا أمام يهودية بيولوجية عنصرية لا علاقة لها بالإيمان الديني في ممارستها وثقافتها عبر تاريخها الطويل.

وبالمثل رسم الإسلام صورة رائعة لعيسى وأمه مريم عليهما السلام، فعيسى عليه السلام هو: الوجيه، المبارك، وروح القدس المؤيد بالبينات، وبالكتاب، والحكمة، وبالمعجزات، والذي عليه سلام الله يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران].

﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم].

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة].

تلك صورة عيسى في القرآن الكريم - كتاب الإسلام - صورة نقية صافية، وأما صورة مريم عليها السلام، فيكفي أن نسوق قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم].

ونعترف أن الصورة الأولى للمسيحية كانت صورة متصوفة مسالمة «من

ضربك على خدك الأيمن فأمل له خدك الأيسر»، لكن التطورات في الغرب انحرفت بالمسيحية عن رسالتها التي وقفت عند «خلاص الروح - ومملكة السماء» وطوعتها إلى «النزعة الصراعية الدنيوية التي سادت نظريات وممارسات تلك الحضارة المادية، حتى وجدنا مفكرًا مسلمًا كالقاضي عبد الجبار (٤١٥هـ - ١٠٢٤م) يقول: «إن النصرانية عندما دخلت روما، لم تنتصر روما، ولكن النصرانية هي التي ترومت»[١]، ومع هذا الانحراف ظهر التنكر للآخر وإنكاره.

فالقديس «أوغسطين» (٣٥٤ - ٤٣٠م) - وهو أشهر آباء الكنيسة الغربية - هو الذي صاغ مبدأ الاضطهاد للمخالفين.. وأقامه على أساس من الكتاب المقدس، مستندًا إلى كلمات فاه بها المسيح عليه السلام؛ إذ قال ما معناه «أجبروهم على اعتناق دينكم» فوضع هذا القديس للكنيسة دستور المخالفين بعقوبات النفي، والجلد، والغرامات، والإعدام ذبحًا وحرقًا.. ومضت الكنيسة مجاهدة لتطبيق هذا الدستور[٢].

وانطلاقًا من عقيدة خلاص المخالفين بتخليصهم من الحياة، وتعريضهم لمختلف صنوف العذاب.. مهد البابا (إنوسنت الثالث) [١١٩٨ - ١٢١٦م] في سنة ١٢٠٨م لنظام محاكم التفتيش[٣]. وفي سنة ١٢٠٩م أصدر مجلس (أفينوس) قرارًا دعا فيه القساوسة إلى مطالبة السلطة المدنية باستئصال المخالفين[٤].

وصار من المبادئ العامة للكنيسة الكاثوليكية هذا المبدأ:

---

(١) السابق، ص(٨٨).
(٢) ينظر: الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام د. توفيق الطويل (طبعة القاهرة، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١م)، ص (٧٠).
(٣) ينظر: السابق ص(٧٣).
(٤) ينظر: السابق، ص (٧٦، ٧٧).

«ويحتفظ الحاكم بعرشه متى قام بواجبه في استئصال الإلحاد، فإن تردد في الاستجابة لأمر البابا باضطهاد المخالفين، أكره على الطاعة، وصودرت أملاكه، وبيعت لأعوان الكنيسة وعرض نفسه للاعتقال والإذلال»[1].

فأين هذا من تعاليم الإسلام ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة]، ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف]، ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون]؟ أين هذا مما أكد عليه لوثر من مبدأ «اضطهاد الآخرين، وإعدام كل من يخالف العقيدة البروتستانتية، وذلك في خطابه إلى فيليب أمير هس المتوفى سنة ١٥٦٧م.. وجاهر بإعدام طائفة منكري التعميد بحد السيف»[2].

يذكر (ول ديورانت) أنه «حدث أن رأى بعض الجنود اللاتين جماعة من المسلمين يصلون في مسجد مقام في مدينة مسيحية، فثارت ثائرتهم، وأشعلوا النار في المسجد، وقتلوا المصلين، وظلت النار مشتعلة ثمانية أيام، وامتدت إلى مسافة ثلاثة أميال، وأحالت جزءًا كبيرًا من مدينة القسطنطينية رمادًا وأنقاضًا»[3].

«لقد صنعت النصرانية الغربية ذلك، ولا تزال تصنعه مع الإسلام الذي جعل التعددية الدينية وحرية الاعتقاد سنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل»[4].

بل لقد طال تعنتها وإنكارها للآخر الكنيسة الشرقية في القديم والحديث، فقد لاقت الأمرين من الدولة الرومانية النصرانية، ولاقت الأمرين أثناء الحروب الصليبية، فلم يفرق الصليبيون في حملتهم بين مسلم أو مسيحي أو يهودي، فقد قتلوا الجميع.

---

(١) السابق ص(٧٧).
(٢) السابق ص (١٠٩).
(٣) قصة الحضارة (طبعة القاهرة) (٤/ ٤٦) وما بعدها.
(٤) د. محمد عمارة: الإسلام والآخر، ص (١٣٠).

رابعا: حرية العقيدة:

أشرنا إلى أن الإسلام حين اعترف بالديانات السماوية السابقة كفل لأتباعها حرية الاعتقاد «وتعني عدم إرغام شخص على القبول بعقيدة لا يؤمن بها، أو الخروج من عقيدة دخل فيها، كما تعني عدم جواز إكراه شخص على ممالأة إحدى الديانات تحاملًا على غيرها، سواء بإنكارها أو ازدرائها أو التهوين من شأنها والحط من قدرها»(١) وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهكذا منع الإسلام كل وسائل الإكراه الديني، وأكد في الوقت نفسه على ضرورة إظهار الحق وإقامة البراهين على العقيدة الصحيحة، ودعا الأفراد والجماعة إلى صيانتها والدفاع عنها.

والإجماع منعقد بين المفسرين والفقهاء على أن هذه الآية الكريمة تمثل قاعدة كبرى من قواعد الإسلام وركنًا مهمًا من أركان سماحته، فهو لا يجيز إكراه أحد على الدخول فيه، ولا يسمح لأحد أن يكره أهله على الخروج منه؛ لذا أوجب الإسلام على المسلمين اصطناع أسباب القوة لدحر من يحاول فتنتهم عن دينهم؛ كما أمر المسلمين باعتماد أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة في الحوار مع الآخر لبيان الرشد من الغي(٢).

قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

وينبني على مبدأ «حرية العقيدة» الذي أرساه الإسلام، ودعا إلى

---

(١) ينظر: الإسلام ومستقبل الحوار الحضاري، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، سلسلة قضايا إسلامية، العدد ١٥، القاهرة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ص (١٠٤).

(٢) ينظر: محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار، مطبعة المنار، القاهرة ١٣٧٦هـ. والشيخ راشد الغنوشي، الحريات العامة في الدولة الإسلامية (ص ٤٤).

الاستمساك به جملة مبادئ أو قواعد مهمة، هي:

أ- المساواة قاعدة التعامل مع الآخر:

فلقد تضافر النقل على قيام علاقات المسالمة بين النبي عليه الصلاة والسلام وطوائف أهل الديانات الأخرى كاليهود والنصارى وطوائف المشركين من سكان المدينة الذين مثلوا مع المسلمين عند قيام الدولة الإسلامية في المدينة أمة سياسية واحدة فكانوا يتمتعون بحقوق المواطنة التي فرضت عليهم واجبات، كالدفاع عن المدينة، وعدم التواطؤ مع العدو مقابل تمتعهم بالحرية الدينية والحماية، فالقاعدة أن المساواة «هي قاعدة التعامل في المجتمع الإسلامي، ولا ترد الاستثناءات إلا في حدود ضيقة، هي من مقتضيات النظام العام، أو هوية المجتمع، ونوع القيم العليا التي تحكمه»[(١)].

ب - حرية المناقشات الدينية:

كفل الإسلام حرية النقاش الديني، ومقارعة الحجة بالحجة؛ وصولًا إلى الحقيقة، وهذه الحرية مكفولة للمسلمين وغيرهم، ما دامت في حدود النظام العام، وما دامت لا تثير الفتنة أو الشقاق.

وعليه، فللمواطن غير المسلم في الدولة الإسلامية الحق في إذاعة قيم هويته في وسطه الخاص، أو في الوسط العام بشرط عدم انتهاك الشعور العام للمسلمين، فإنه لا جدال في أن له الحق في أن يعبر عن رأيه في الإطار القانوني الذي يخضع له الجميع، وفي الحدود التي لا تجرح مشاعر الأغلبية التي احترمت ابتداء حق الأقلية في أن تعبر عن رأيها[(٢)].

---

(١) الشيخ راشد الغنوشي: الحريات العامة في الدولة الإسلامية (ص ٤٦).
(٢) د. إسماعيل الفاروقي: حقوق غير المسلمين في الدولة الإسلامية (المسلم المعاصر، العدد ٢٦).

ج - حرية ممارسة الشعائر الدينية:

كفل الإسلام لأهل كل عقيدة، حق إقامة الشعائر، في حدود رعاية الرأي العام والذوق العام للأغلبية.

فقد أقر النبي ﷺ اليهود على ممارسة شعائر دينهم، فلم يصلنا عنه ﷺ أنه منعهم من ذلك.

وسمح لوفد المسيحيين من نجران أن يؤدوا صلاتهم، وأن يقيموا شعائرهم في مسجده.

وأعطى عمر بن الخطاب أهل إيلياء في القدس، أمانًا على أنفسهم، وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم.

خامسًا: حرية الفكر والتعبير:

لقد ضرب القرآن الكريم أمثلة رائعة في تقديره لملكة الفكر، وحرية التعبير من خلال دعوة العقل للنظر في كل شيء.

ففي القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على التفكر، والتدبر، والتعقل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

وتتضح حرية الفكر والتعبير أيضًا من خلال أمثلة الحوار الرائع الذي كان يديره الأنبياء مع أقوامهم، وحتى مع الطغاة منهم، التي تبرز بجلاء اعتماد حجة العقل إمامًا وهاديًا من طرف الأنبياء، مقابل اعتماد حجة السلاح والقوة من جانب الطغاة، كلما أعيتهم الحيلة، وأعجزهم الروغان.

ولعلنا نلتمس حرص الإسلام على حرية التفكير والرأي والتعبير في

تحريض النبي ﷺ لأصحابه وأتباعه بقوله: «لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس»(١)، بل وفي ممارساته ﷺ ما يؤكد ذلك، فكان ﷺ يتسع صدره للآراء المخالفة.

حرية الإنسان في ذاته:

وحرية الإنسان في ذاته، في مفهوم الإسلام تنبثق من عقيدته ومبادئ شريعته، وهو مفهوم لا يقف عند الظواهر العامة الشائعة، وإنما يسبر أغوار النفس البشرية، ويعبر عن القيم الإنسانية التي جاء بها الإسلام.

فلئن كانت الحرية تأتي بمعنى عدم الرق، فإنها تأتي بمعنى آخر، أبعد مدى، وأعمق أثرًا، في الحياة الإنسانية، إنها حرية الوجدان من أسر الشهوات، والأهواء، وأغراض الحياة الدنيا، وذل الانقياد لسلطان ينافي سلطان الله، ويجافي الحق.

إن المفهوم الإسلامي للحرية، يقتضي ألا يدين الإنسان بالعبودية إلا لله، فلا سلطان للخلق عليه، وليس لبشر حق استرقاق بشر، وليس لأحد أن ينتحل صفة الربوبية، أو يؤله فيستعبد الناس، وقد خلقهم الله من نفس واحدة، وهم جميعًا عباد لله.

لقد جاء الإسلام فحرم الرق جميعًا، ولم يبح منه إلا ما هو مباح لدى الأمم، وحتى في الحروب لم يجعل الإسلام استرقاق الأسرى ضربة لازب بل أعطى الخيار في المن والفداء، والمن في التشريع الإسلامي مزية إسلامية: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

وحتى مع هذا، ضيق الإسلام منابع الرق، تمهيدًا للقضاء عليه بالكلية،

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٣٢٠).

وقد كان، فالكفارات جاءت بإعتاق رقبة، كما في حال المفطر عمدًا في رمضان، أو المظاهر من زوجته، أو الحانث في يمينه، هذا بالإضافة إلى الحث على تحرير الأرقاء؛ ابتغاء الثواب العظيم من الله.

فرغب في إعتاق الرقيق، كقوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ [البلد].

وقال ﷺ: «من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضوًا من النار»[1].

والحرية في الإسلام هي: الحرية المتزنة المنضبطة، التي لا تخل بالآداب العامة، ولا تتحول إلى فوضى وإباحية، ولا تتعدى على حرية الآخرين.

* * *

(١) أخرجه البخاري (١١/٥٥٩) حديث (٦٧١/١٥)، ومسلم (٢/١١٤٧) حديث (١٥٠٩/٢٣).

المبحث الثاني

القواعد الجزئية لمنهج الحوار الإسلامي

بعد أن عرضنا للمرتكزات العامة، والمبادئ الرئيسة، لمنهج الحوار الإسلامي، نشير فيما يلي إلى بعض القواعد الجزئية التي ارتكن إليها هذا المنهج، وهي قواعدُ يمكن تفريعها على تلك المرتكزات، والمبادئ العامة.

أولاً:

«الحكمة ضالة المؤمن، أني وجدها كان أحق بها»[1]، فيلزمه المبادرة إلى تحصيلها، والإفادة منها، وتوجيه الشكر إلى صاحبها عليها، بغض النظر عن جنسه، أو لغته، أو دينه.

ثانيا:

لا تعرف الحق بالرجال، ولكن اعرف الحق تعرف أهله.

«وهاتان القاعدتان تلقيان الضوء على أسلوب الحوار مع الآخر، وكيف نتعامل معه، فلا نهتم بصاحب الرأي بقدر ما نصرف اهتمامنا وتأملنا إلى النظر في الرأي نفسه، تمحيصًا وتدقيقًا، وهل هو من قبيل الحكمة فيقبله المسلم، ويشكر صاحبها عليه، أم من قبيل العبثيات، فيردها على صاحبها، ولا عبرة في هذا الموقف بالشخص القائل، أيًا كان دينه أو ثقافته، ولونه وجنسه، ما دام القول في ذاته حقًا، والرأي حكيمًا، فمحور التعامل مع الآخر هو النظر في الأقوال، والتأمل في الآراء المجردة، بصرف النظر عن مكانة أصحابها، وانتمائهم الثقافي والحضاري»[2].

---

(١) أورده ابن عبد البر فى جامع بيان العلم (١/ ٤٢١) عن على بن أبى طالب موقوفا، وأبو نعيم (٣/ ٣٥٤) عن عبد الله بن عبيد الله بن عمير موقوفًا.

(٢) ينظر: لغة الحوار بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، د/ محمد السيد الجليند، بحث ضمن أعمال المؤتمر العام الثامن للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية (الإسلام ومستقبل الحوار الحضاري) ١٩٩٦م (ص: ٢٣٢).

ثالثا:

وتتمثل هذه القاعدة في قول الله عز وجل: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. ولا يقتصر إعمال هذه القاعدة، وتفعيلها على ميدان الدعوة إلى الله بالأسلوب المباشر فحسب، بل يمتد مجال هذه القاعدة ليشمل كل دعوة إلى الحق في أي مجال من مجالات المعرفة الإنسانية؛ إذ إنها جميعها حلقة من حلقات الدعوة إلى الله.

رابعا:

ليست وظيفة الحوار مرتبطة بهداية الطرف الآخر، والرغبة في قبوله للرأي الذي نعقده فحسب، بل إن الوظيفة الأساسية للحوار هي البلاغ والبيان، وتوضيح رأينا وفكرنا في موضوعية وأمانة؛ إذ إن هداية القلوب وتهيئتها لتقبل الحق والانتفاع به، أمر بيد الله وحده، ولذلك فقد أكد القرآن الكريم في غير آية، على أن الهداية القلبية ليست من وظيفة الرسل ولا من مهمتهم التي كلفوا بها، ولكن الله يهدي من يشاء، متى قدم بين يدي الله أسباب هذه الهداية قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية].

إن التعريف بالحق، ولفت الأنظار إليه، وإقامة البراهين والأدلة عليه، هو المهاد لاعتقاده والإيمان به.

خامسا:

تحري العدل والاحتكام إليه في الحوار مع الآخر، حتى ولو كان هذا الآخر عدوًّا لنا، وخصمًا لديننا وعقيدتنا وثقافتنا؛ إذ العدل مطلب مهم من المطالب الإنسانية العامة؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟

﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨] أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقًا كان أو عدوًّا؛ ولهذا قال: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: عدلكم أقرب إلى التقوى من غيره[١].

سادسًا:

ضرورة أن يحكم هذا الحوار مع الآخر المبدأ القرآني: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وهذا المبدأ «عام يشمل كل حوار، ويرسم له حدوده، ويبين ما يجوز وما لا يجوز، فإذا تخطى أسلوب الحوار هذا المبدأ القرآني وتجاوزه، فقد نقله صاحبه من مجال الحوار المشروع إلى مجال آخر يرفضه الشرع شكلًا وموضوعًا؛ لأن من ضروريات هذا المنهج مراعاة ظروف الناس ومخاطبتهم حسب مستواهم الفكري والثقافي، ومن الثابت تاريخيًا أن بذر الحكمة في غير موضعها إضرار بها، ومنعها أهلها إضرار بهم، فمراعاة هذه الفوارق بين الناس من لوازم هذا المنهج»[٢].

لقد وعت العقلية الإسلامية جيدًا أبعاد المنهج الصحيح في الحوار في مرتكزاته العامة، وقواعده الجزئية، وأساسها الكتاب والسنة، ولعل هذا الوعي بمنهج الحوار، والإدراك لقيمته وخطورته، حمل المسلمين على الانفتاح على جميع الحضارات التي عاصرت الحضارة الإسلامية؛ «ولذلك فقد اعتقدوا أن الأخذ عن الآخر، والتأثر به، قد يكون مطلبًا شرعيًا خاضعًا لأحكام الشرع، وجوبًا أو ندبًا، ومعيار ذلك كله خاضع للضوابط العامة لمنهج الحوار الإسلامي، ولعل من نافلة القول أن نشير هنا، إلى أن هذه

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠).
(٢) ينظر: لغة الحوار بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، د. محمد السيد الجليند (ص ٢٣٣).

الضوابط تتسع دائرتها؛ لتغطي كل أمور الحياة اليومية للمسلم، على مستوى الفرد، وعلى مستوى الأمة، وكذلك تتسع دائرتها؛ لتشمل كل العلوم النظرية والعملية معًا، فما كان حقًّا ونافعًا وجب قبوله، وأصبح ذلك مطلبًا شرعيًّا، حتى ولو كانت هذه العلوم قد وفدت إلينا من الأمم الكافرة التي لا تدين بديننا؛ لأن نظرنا في ذلك يتوجه إلى العلم في نفسه؛ بصرف النظر عن صاحبه؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن؛ ولذلك يجب عليه قبولها شرعًا، سواء كان قائلها من أبناء ملتنا ويدين بديننا، أم لا»[1].

* * *

(١) السابق (ص ٢٣٤).

الفصل الثاني

تجليات منهج الحوار الإسلامي

في القرآن والسنة

نحاول الآن دراسة تجليات منهج الحوار الإسلامي في القرآن والسنة، وذلك في المباحث الآتية:

المبحث الأول:

الحوار في القرآن الكريم

بان لنا أن الحوار مبدأ من المبادئ التي قررها الشرع وحث على الالتزام به، والتحلي بآدابه، وقد أمر القرآن الكريم أتباعه بالحوار، إما على سبيل الوجوب، وذلك حين يتصل بواجب من الواجبات الشرعية؛ فيندرج آنذاك في باب: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»، وإما على سبيل الندب، كأداة موضوعية من أدوات التعرف على الآخر والتواصل معه، وسبيل من سبل الدعوة إلى الله.

ونستطيع أن نقول: إن هذا هو المستوى النظري لمنهج الحوار الإسلامي، كما جسدته نصوص القرآن الكريم وآياته، التي تمثل القسمات العامة، والمعالم البارزة التي يستصحبها المسلم في حواره مع الآخر على مستوى الفكر والكلمة.

أولاً: خصائص الحوار في القرآن:

ويدلنا الاستقراء الدقيق لآيات القرآن الكريم، والاستقصاء المحكم لنصوصه أن: «الحوار في القرآن» يمتاز بجملة خصائص وسمات قد انفرد بها، وهي:

أولاً: التنوع:

تنوعت أساليب الحوار القرآني وتباينت اتجاهاته؛ حيث لم يقتصر على أمر

من أمور الدنيا، أو شأن من شئون العقيدة والشريعة، بل نجده حوارًا منوعًا في موضوعاته، يوشك أن يشمل كافة جوانب الحياة.

فنجد حوارًا يناقش مسألة الإصلاح، ويعرض لها عرضًا منطقيًا هادئًا؛ قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣)﴾ [هود].

وثمة حوار يشير إلى قضية الخير والشر، ورد على النحو الآتي؛ قال تعالى:

﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ

جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾
فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ
أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ
أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى
ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ
وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ
لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [المائدة].

ونجد حوارًا في السياسة؛ قال تعالى:

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحْنُ
أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ
قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ
فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل].

ونجد حوارًا في طلب العلم والتماس الحكمة، قال تعالى:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ
لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا
﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ
أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا
﴿٧٠﴾﴾ [الكهف].

ونجد حوارًا في صراع النفس، أو قل: صراع بين الاستجابة لشهوة النفس وما تميل إليه، وبين الإذعان لأمر الله عز وجل؛ قال تعالى:

﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ
حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا
تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ

لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات].

ونجد حوارًا في مقاومة الطغيان، ومواجهة السلطان الكافر؛ قال تعالى:

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ
ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ
خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ
لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟
كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن
نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ
﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى
يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ
ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ
لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ
ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى
فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا
خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه].

ونجد حوارًا بين السادة المستكبرين والأتباع المستضعفين في الآخرة؛ قال تعالى:

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ
عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟
لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ
ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ

مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ].

ونجد حوارًا بين كافر غني، ومؤمن فقير؛ قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔاۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف].

ونجد حوارًا بين موسى وهارون عليهما السلام من جهة، وفرعون من جهة أخرى؛ حيث أمر الله موسى أن يدعوه إلى الإيمان بالله وتوحيده؛ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء].

ونجد حوارًا عجيبًا بين نبي الله سليمان وبين الهدهد؛ قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النمل].

ويطول بنا الحديث لو ذهبنا نستقصي ألوان الحوار المختلفة التي تضمنها القرآن الكريم، والتي تشمل الحياة الإنسانية جميعها، على اختلاف جوانبها، وتشعب نواحيها، الأمر الذي يجعلنا نقرر واثقين أن: «الحوار» في القرآن لم يرد عرضًا، بل كان غرضًا من أغراضه وأساسًا من أسسه في الدعوة إلى الله، وأداة نافعة من أدوات الإصلاح والبناء التي تستهدف خير الأفراد والجماعات.

ثانيا: الاعتماد على العقل، واصطناع أدلته وبراهينه:

لقد نزع الحوار القرآني منزعًا عقليًا يتبينه في وضوح قارئ القرآن، ومن تَدَبَّرَ آياته.

وتنسجم هذه الخصيصة من خصائص الحوار القرآني مع نظرة الإسلام إلى العقل؛ حيث دعا إلى إعماله، وعده سبيلًا من سبل الاهتداء إلى الحقيقة، وطريقًا إلى الإيمان بوجود الله ووحدانيته، فلا جرم كان التفكير في الإسلام فريضة من الفرائض لا يجوز إهمالها، ولا يسوغ بحال من الأحوال استدبار طريقها، أو الإعراض عنها.

ونجد القرآن لا يذكر العقل إلا معظمًا له، ولافتًا أنظار الناس إلى دوره وقيمته، وداعيًا لهم إلى وجوب إعماله، والاستجابة لمطالبه، والإذعان للوازمه، والاحتكام إليه في كثير من القضايا.

ولا تأتي الإشارة إلى العقل في القرآن الكريم عارضة، ولا مقتضبة في سياق الآية، بل تأتي في كل موضع من مواضعها، مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة، وتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي، التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله، أو يلام فيها المحاور على إهماله عقله، وقبوله الحجر عليه، والقرآن الكريم لا يذكر العقل عرضًا مقتضبا، بل يذكره مقصودا مفصلًا، على نحو لا نظير له في كتب الأديان الأخرى، فمن ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة].

وفي سورة الأنبياء: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء].

وفي القرآن الكريم يتكرر الخطاب إلى العقل؛ لأن العقل معدن الإدراك والفهم في ذهن الإنسان، والقرآن الكريم إنما يلجأ إلى التذكير بالعقل؛ لأن العقل خير مرجع للهداية في ضمير الإنسان(١).

وهو في كثير من آياته يستحث العقل للنظر في قضية الإيمان بالله، لأن العقل في شرعة الإسلام يبتغي الحقيقة حيث كانت، ولا يحجم عن المعرفة حيث أصابها، ولا يقيم فوقه أو بين يديه بابًا مغلقًا دون قبس من النور يريه ما

---

(١) التفكير فريضة الإنسان، عباس العقاد (ص ١٠ - ١١).

لم يكن يراه، أو يزيده بصيرة بما رآه[1].

وتأسيسًا على نظرة الإسلام إلى العقل، ورفعه من شأنه، والتنبيه على خطورته، سلك الحوار القرآني مسلكًا عقليًا، يعتمد على إبراز الحجة وإظهار الدليل، وبدا ذلك واضحًا في قضية الإيمان بالله تعالى؛ إذ مدار البحث عن هذه القضية والتفكير فيها على العقل، وما يُنتجه من أدلة وبراهين، فلا غرو كان إيمان المقلد للآخرين دون تفكير، ودون استجابة لأحكام العقل، إيمانًا ناقصًا مردودًا.

ومن تجليات هذه النزعة العقلية في الحوار القرآني، ذلك الحوار الذي وجه الله به نبيه ليحاور المشركين، فافترض لهم جدلًا أن ثمة آلهة أخرى مع الله تشاركه الألوهية، وتنازعه تدبير شئون الدنيا، ومباشرة أحوال الخلق، فماذا تكون النتيجة؟ ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء].

وقال عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٣].

والحوار القرآني هنا يعول على العقل المجرد تعويلًا كاملًا، بعيدًا عن التأثر بأي عامل خارجي عن نطاق المحاورة وحدودها.

ويقدم القرآن الكريم صورًا ومشاهد تشهد لقضية البعث، كما حدث مع سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما أراد أن يصل في قضية إحياء الموتى من علم اليقين إلى عين اليقين، فقال كما يحكي القرآن: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فواضح أن نبي الله إبراهيم عليه السلام يفترض في حواره أنه مؤمن، وجوابه في قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ هو تقرير للواقع، مع أنه مؤمن حقيقة، ولكن هذا لا

(١) المرجع السابق (ص ١١).

يتعارض مع التجرد الذي افترضه وقت المحاورة، بدليل قوله: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ فإن إبراهيم عليه السلام نبي، والمؤمن لا بد أن يكون مطمئنًا بالإيمان؛ لنبوته، ولكن ذلك لا يمنع من افتراض عدم الاطمئنان.

ولئن كان يبدو في هذا شيء من غرابة وتساؤل، فالجواب أنه منهج إبراهيم عليه السلام الذي يضرب مثالا لا يضاهي، في مقدرته الخارقة على المحاجة والمحاورة.

وفي محاورة أخرى لسيدنا إبراهيم عليه السلام يصل به التجرد في محاورته مع عبدة الكواكب أن جاراهم في حواره وافترض ربوبية الكواكب: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ [الأنعام: ٧٦].

وغرض التجرد نفي وجود أي مؤثر على المحاور غير العقل ولو كان خروجًا مفترضًا على أهم صفة من صفات الرسل، ألا وهي العصمة، وهذا نموج على أن المحاورة في القرآن طابعها الاعتماد على العقل ومتابعة هذا الاعتماد إلى أي مدى عقلي تحتاجه المحاورة، ولو كان خروجًا على أهم أسس القرآن نفسه ومبادئه، وهو معنى كبير وعميق وذو دلالات كثيرة منها تمجيد الإسلام الواضح للعقل، ومنها ثقة الإسلام في رسوخ مبادئه وموافقتها لكل العقول.

ثالثاً: الموضوعية والحياد:

امتاز الحوار القرآني - من بين ما امتاز به - بالموضوعية الكاملة التي تعني: التجرد الكامل أثناء المحاورة من الآراء السابقة، والإعراض بشكل كلي عن الأهواء والميول الشخصية؛ إذ الالتفات إليها يفقد الحوار قيمته وأهميته في الاهتداء إلى الحق والإيمان به، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ﴾ [يونس: ٣٦]. وقال : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [القصص: ٥٠].

واتفق علماء العقيدة على أن الإيمان بأصول الدين سبيله الدليل والبرهان، ولذا نجد القرآن الكريم يتبنى في إثبات قضايا العقيدة والجدال حولها ما اصطلح المحدثون على تسميته بالشك المنهجي، ومفهومه: أن نبدأ في تحقيق القضية متجردين من آرائنا السالفة، ونخضعها للشك ثم نتحاور حولها.

وفي القرآن الكريم ما يشهد لذلك ويؤكده، قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

فالآية تأمر الفريقين اللذين تصديا للمحاورة بالتخلي عن التعصب وبالتجرد عن التصورات السابقة، وتدعو إلى البحث عن الحقيقة في إطار من الموضوعية في الحوار، تلك الموضوعية التي تجعل البرهان هو مقياس الحقيقة ومعيارها الأول. وفي ضياء الدليل والبرهان نبلغ الحقيقة ونظفر بها فتكون النتيجة إزالة الشك الذي التزمناه في البداية عند بحث القضية.

ولقد عد القرآن الكريم التصورات والآراء التي لا تنهض على دليل أو برهان لهوًا مرفوضًا، وتلك سمة من سمات الحوار الموضوعي، قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦] ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وفي الحوار الموضوعي يجب أن يمتلك الإنسان القدرة على التنازل أمام البرهان والحجة ومهما دعاه ذلك إلى التخلي عن رأيه الأول فإن عليه الانصياع للحقيقة المبرهن عليها ولا يتورط في عناد أعمى وتعصب عاطفي وهذا أيضاً مما التزمه القرآن الكريم في محاوراته ولم يجد حرجاً في قبول الحقيقة مهما كانت ما دام البرهان قائماً عليها، يقول القرآن الكريم: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص].

الخطاب في الآية للكفار هؤلاء الذين يخالفونك - يا محمد - قل لهم: ائتوا بكتاب من عند الله هو أهدى من القرآن والتوراة حتى أتبعه، ومعني ذلك أن الرسول ﷺ يجب أن يكون على مستوى التنازل لهم لو جاءوا بالحقيقة، ولن يجيئوا.

إن التعصب من منظور القرآن حالة مرضية تعني قصوراً في العلم وحجاباً يحجب الحق، إن تجرد المتحاور وحياده التام وشعاره يجب أن يكون: معرفة الرجال بالحق لا الحق بالرجال، وما أن قلب حال المسلمين وجمد حركة الفكر الديني والعلمي إلا يوم أن أصبح الحوار يقوم على قيم سلبية من الهوى والمصلحة الشخصية، ونصرة المذهب والرأي وحب الغلبة، من غير اعتماد على علم أو معرفة أو تقوى، ويوم أن أصبح المعيار في القبول والرد هو صاحب القول في ذاته، وإنه مهما نسبت الكلام إلى قائل حسن فيه اعتقادهم قبلوه وإن كان باطلًا، وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ردوه وإن كان حقًا فأبدًا يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون الرجال بالحق وهو غاية الضلال[1].

وحتى يتحقق للحوار طابع الموضوعية وسمة الحياد المجرد؛ فلا بد من الركون إلى الأساليب الإقناعية في الحوار ومنها:

* تقديم الأدلة والبراهين التي تثبت أمراً من الأمور أو ترجحه على سواه.

* إثبات صحة النقل وسلامته من التحريف والتزييف، وذلك فيما يتصل بالروايات المنقولة.

وقد صاغ علماء الجدل وأصحاب المناقشة والمناظرة هذين الأسلوبين في قاعدة محكمة تقول: (إن كنت ناقلًا فالصحة، أو مدعياً فالدليل).

وإلى هذه القاعدة أشار القرآن الكريم في غير آية، قال تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ

(١) الإمام الغزالي المنقذ من الضلال ص (١١٤) مكتبة الأنجلو المصرية سنة (١٩٥٥م).

صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل].

وهذه الآية الكريمة تطالب المشركين بإظهار البراهين وتقديم الأدلة سواء أكانت عقلية أم نقلية.

وقال تعالى يطالب المشركين بتقديم الدليل النقلي: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنبياء].

* ومن آداب الحوار القرآني والتي تتصل بالموضوعية اتصالًا وثيقاً أن يخلو كلام المحاور من التعارض أو التناقض، وإلا كانت دعواه فيما يقول ساقطة متهافتة ، فمن ذلك: ما حكاه القرآن الكريم عن الكافرين حين كانوا يرون أن الآيات الباهرات التي كانت تنزل على رسول الله ﷺ سحر مستمر قال الله - تعالى - في أول سورة القمر: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر].

ففي قولهم هذا تعارض وتهافت ظاهر لا يستحق ردًّا؛ وذلك لأن من شأن السحر - كما يعلمون - ألا يكون مستمرًّا، ومن شأن الأمور المستمرة ألا تكون سحراً، أما أن يكون الشيء الواحد سحراً ومستمرًّا معاً فذلك جمع عجيب بين أمرين متضادين، لا يجتمعان.

ونظير ذلك قول فرعون عن موسى - عليه السلام - إذ جاءه بسلطان مبين من الحجج الدامغة، والآيات الباهرة: ساحر أو مجنون. قال - تعالى - في سورة الذاريات: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الذاريات].

وهذان أمران متضادان، ومن غير المقبول منطقيًا أن يكون الشخص الواحد ذو الصفات الواحدة، متردداً بين كونه ساحراً وكونه مجنوناً، وذلك؛ لأن من شأن الساحر أن يكون كثير الذكاء والدهاء، وهذا أمر يتنافى مع الجنون تنافياً

كليًا، فكيف صح في فكر فرعون هذا الترديد؟ إن في كلامه هذا لتهافتاً ظاهرًا يسقطه من الاعتبار لدى المحاورة، فهو لا يستحق عليه جواباً[1].

رابعاً: إنصاف الخصم:

لفت القرآن الكريم المسلمين إلى مسألة مهمة لها أثر غير منكور في ترقيق القلوب وترويض العقول، ألا وهي إنصاف الخصم، فلقد نهانا القرآن الكريم أن نغمط أصحاب الحقوق حظهم، حتى ولو كانوا يدينون بغير ملتنا، ذلك أن الحق أحق أن يتبع، وأجدر الناس باتباعه هم أصحاب الدعوات والمبادئ.

وبناء على ذلك ميز القرآن الكريم في حديثه عن أهل الكتاب بين ضربين منهم، ففيهم الظالم المتكبر المعاند الذي يأبى الإذعان للحق، وفيهم كذلك المنصف العادل، صاحب المروءة، الحريص على الوفاء بالحق؛ ولذا فليس من الإنصاف أن نصدر حكمًا عامًّا على أهل الكتاب يشمل الظالم والعادل، والمنصف وصاحب الهوى، دونما مراعاة لهذا التمييز الذي نبه إليه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥].

وقال في آية أخرى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

ومن ناحية أخرى دعا القرآن الكريم من يتصدى لمجادلة أهل الكتاب، أن

---

(١) مناهج الجدل في القرآن د/زاهر بن عواض ص (٥٠١).

يصطنع في هذه المجادلة القول المهذب، والكلمة الطيبة، دون طعن أو تجريح أو احتقار لوجهة النظر التي يدعيها الخصم ويدافع عنها، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقال تعالى يحث المسلمين على التزام العدل في التعامل مع الآخر، ولو كان صنيعه يدعو إلى ضد ذلك: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [المائدة: ٨].

وقد أشار الباحثون(١) إلى الحقوق التي منحها القرآن الكريم للخصوم، فمنها: التجرد من المؤثرات، والاحتكام إلى حكم يقبله المتحاورون، ونستطيع أن نضرب مثالًا للتجرد من تأثير المؤثرات: أن تكون هناك محاورة بين مؤمن وكافر، ويحاول المؤمن أن يثبت وجود الله، فلو قال المؤمن للكافر: أنا مؤمن بوجود الله، ثم قال أي شيء بعد ذلك، فليست هذه محاورة، بل هي الزام للخصم، والأمر كذلك لو قال له: الله قال كذا، أو الرسول ﷺ قال كذا؛ لأنه لا يؤمن بالله ولا بالرسول، وإنما المحاورة المنطقية السليمة أن يتجرد كل من الخصمين أثناء المحاروة من عقيدته افتراضاً، ومن انتمائه إلى أي شيء يؤثر عليه فيما يتعلق بموضوع المحاورة(٢).

ومن الممكن أن نستدل على ذلك بموقف سيدنا إبراهيم مع عبدة الكواكب، حينما كان يحاورهم في إثبات وجود الله، حيث افترض ألوهية الكواكب مجاراة لخصومه، يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا

---

(١) ينظر: مناهج الجدل في القرآن، د/ زاهر بن عواض: ص(٥٠١)، طبيعة الحوار في القرآن، د. شوقي إبراهيم، ص (١٨٤-١٨٥)، عبدالحليم حفني، أسلوب المحاورة ص(٣٢-٣٣)

(٢) أسلوب المحاورة، د/ عبد الحليم حفني ص (٣٢).

رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام].

وأما الاحتكام إلى حكم يرتضيه الطرفان، فذلك أمر طبيعي أن يختصم الطرفان إلى قاض يرتضيانه؛ ليقضي بينهما، وهذا أمر يحدث فيما يتعلق بالخصومات الدنيوية، أما فيما يتعلق بأمور الدين، فلا يتصور فيها قاض مرتضًى من الطرفين؛ لأن القاضي إما مؤمن مسلم، وإما كافرٌ وليس بينهما وسط، وفي كلا الحالين فهو منحاز لأحد الطرفين؛ ولذلك لم يكن هناك حكم يحكم في خصومات الدين إلا العقل؛ لأنه قاسم مشترك ومتفق عليه وعلى حقائقه بين الناس جميعاً؛ ولهذا نجد القرآن يركز عليه وجعله الحكم والقاضي مهما يكن الطرف الذي يمثله القرآن، ولو كان ذات الله سبحانه؛ لأن الأمر حينئذ لا ينظر فيه إلى أشخاص المحاورة، وإنما إلى عدالة الموقف، فما دام القرآن يرتضي إقامة محاورة، فهي محاورة في قمة المثالية بصرف النظر عن شخص المحاور، كما أن القاضي يجب أن يحقق العدالة مهما تكن أشخاص المتخاصمين[(١)].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ].

أي أدعوكم إلى واحدة، قيل: خصلة واحدة، أو كلمة واحدة هي: لا إله إلا الله، أو هي القرآن باعتبار الكلمة جنساً، ﴿أَن تَقُومُوا۟ . . .﴾ أي للحق كونوا قوامين بالقسط.

﴿لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ . . .﴾ أي: مجتمعين ومنفردين.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ . . .﴾ دعوة إلى التفكير . . إن وقفنا عليها – مطلق التفكر في الأنفس والآفاق . . مما يفضي إلى التوحيد، وهو منهج قويم في الحوار أن تترك خصمك يصل إلى الحق الذي تريد مما يظن معه أنه هو الذي اكتشفه،

---

(١) أسلوب المحاورة د / عبد الحليم حفني.

فيكون أكثر إقبالًا وأكثر استمساكاً[1].

خامساً: التركيز على الهدف من الحوار:

* عني القرآن الكريم عناية فائقة بتحديد الهدف الذي تدور حوله المحاورة، وضرورة إبرازه، والتركيز عليه مع الأخذ في الاعتبار أن يكون مقبولًا من النفوس بعد تجاوزه مرحلة القبول العقلي، فإذا انتهت المحاورة وظهر الحق، فإما أن يسلم به الخصم ويذعن له، وإما أن يفحم ويعجز عن متابعة الحوار، وفي الحالة الأولى يغلب على الخصم الاعتراف بالحق، واعتناقه، وأما في الحالة الثانية فالغالب أن يبقى الخصم على خصومته، وعند اللجاجة يجب الانتهاء من الحوار، والمثال الدال على ذلك الحوار بين إبراهيم والنمروذ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة].

فقد حاج النمروذ إبراهيم في ربه، فحاجه إبراهيم بصفة من صفات الله لا يشترك معه فيها أحد: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ .

فإذا بالخصم يصل إلى اللجاجة، بل الوقاحة فيقول: أنا أحيي وأميت.. وراح يفسرها تفسيراً هزيلًا، حين حكم على اثنين بالإعدام، ثم عفا عن واحد، ونفذ الحكم في الثاني.

فحاجه إبراهيم بآية كونية لا يستطيعها خروجاً من هذا المراء قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ فأفحم وبهت.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ

(١) أدب الحوار، د. علي جريشة ص (٨٦).

ﭐللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء].

وعندما يصل الأمر إلى حد السخرية والاستهزاء، فإن الأمر لا جدوى منه!! فقد وصل إلى حد اللجاجة، ومن ثم فإنهاء الحوار بالإفحام أو بالقيام كما أشارت إلى ذلك الآيات الكريمة هو الأولى من البقاء.

سادساً: مراعاة المستوى العقلي للآخر:

اتسم منهج الحوار في القرآن كذلك بمراعاة المستوى العقلي والحضاري للآخر، إذ ليس الهدف من الحوار مجرد إقناع الخصم بعقيدتنا وتصوراتنا أو التغلب عليه وإفحامه، ولكن الهدف منه أن يكون حواراً بالحكمة والموعظة الحسنة، الأمر الذي يدعم تواصلنا مع الآخر غير الإسلامي، ويطور من علاقاتنا معه؛ لأجل صالح الإنسانية، حتى ولو لم يؤمن هذا الآخر بما ندعوه نحن إليه[١].

لقد أمرنا القرآن الكريم أمراً صريحاً لا تمويه فيه، ألَّا نحمل الإنسان كرهاً على اعتقاد أمر لا يقوم عليه دليل صحته ولا برهان صدقه، فلا إكراه في الدين، وروح القرآن الكريم تسري بين آياته على هذا النحو الصريح، في توضيح معالم المنهج القرآني، في أسلوب الحوار ومقاصده وأهدافه، ولا بد أن يكون ذلك مشمولاً ومحروساً بقلب لين هين، ولسان رطب عذب الكلمات، حتى يؤتي الحوار ثمرته، ويصل إلى تحقيق مقاصده، ويجسد القرآن الكريم هذا المعنى في خطابه للرسول المعلم، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩][٢].

---

(١) ينظر: طبيعة الحوار في القرآن، شوقي إبراهيم، ص(١٨٨).

(٢) ينظر: لغة الحوار بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، د. محمد السيد الجليند، ص (٢٣٥).

ثانيا: أسباب الحوار ودواعيه في القرآن الكريم[1]:

للحوار في القرآن الكريم أسباب موضوعية، ودواع مهمة، دعت إليه وأوجدته أساساً من أسس الدعوة إلى الله وأداة من أدواتها، ويسعنا أن نجمل هذه الأسباب وتلك الدواعي فيما يلي:

* نقد الباطل القديم.

* بناء المفاهيم الصحيحة.

* الرد على الشبه والافتراءات.

أولاً: نقد الباطل القديم:

لم يكن من المقبول ولا من الممكن أن يقوم الإسلام بإرساء تشريعاته، وبناء قوانينه التي تشمل جوانب الحياة المختلفة، قبل أن يمهد لذلك بخطوة على قدر كبير من الأهمية، وهي نقد المفاهيم والتصورات والعقائد والظواهر القديمة؛ لما تنطوي عليه من زيف وبطلان، ومن أجل ذلك نجد القرآن الكريم يتوسل بالحوار كآلية من آليات تقويض الباطل القديم الذي درج عليه أهل الجاهلية، وألفوه حتى استحال جزءاً من حياتهم لا يتصورونها بدونه، والتبس عليهم الأمر فظنوا الباطل حقًّا، والخطأ صواباً، والضلال هداية ورشاداً.

(أ) الحوار ونقد العقيدة السائدة، والتنبيه على انحرافها:

كانت البيئة العربية إبان نزول القرآن وقبل نزوله بيئة فسدت عقيدة أبنائها؛ إذ كانوا يعبدون الأصنام والأوثان من دون الله ، ويقدمون لها الهدايا والقرابين؛ التماساً لرضا كاذب، واتقاء لسخط متوهم، ولقد أراد القرآن الكريم أن يهيئ قلوب العرب وعقولهم ونفوسهم لقبول عقيدة التوحيد

---

(١) ينظر في (دواعي الحوار في القرآن): طبيعة الحوار في القرآن، شوقي إبراهيم، ص (١٨٩-١٩٩).

الخالص فقصد إلى هدم عقائدهم الفاسدة أولًا، ونبه إلى زيفها وبطلانها، فكان ذلك بمثابة إعداد الأرض وتنظيفها قبل البناء.

ومن هنا وجدنا القرآن الكريم: ينمي العقول والمدارك، ويوقظ النفوس من سباتها العميق، ويدفعها دفعاً قويًا إلى الملاحظة والتدبر والتأمل، عساها تدرك ما تنطوي عليه عقائدهم التي دانوا بها من زيف وفساد فتدعها، وتؤمن بما جاء به رسول الله ﷺ من عقائد وشرائع صحيحة.

وفي هذا السياق نقرأ الآية الكريمة التي تتضمن حوار النبي ﷺ للمشركين: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم].

وتلك الآيات هي الأولى من نوعها، في احتوائها تعريضاً صريحاً بمعبودات العرب وعقائدهم، ونقاشاً وحجاجاً وإفحاماً حول هذه العقائد[1].

وفي الاتجاه نفسه قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء].

يقول الدكتور محمد البهي: «لو كانت هناك آلهة شركاء لله، لاختلفوا فيما بينهم حتما؛ ولأدى اختلافهم بالتالي إلى الاستغاثة بصاحب القوة والعرش من بينهم، والاستعانة بالغير تنطوي على الحاجة إليه، والحاجة دليل على عدم تمام القدرة لمن له حاجة، والإله لا بد أن يكون تام القدرة، وكاملًا في صفاته، فادعاء آلهة مع الله ادعاء واضح الكذب والتهافت»[2].

وقد احتوت الآية كما - قال دروزة - حجة جدلية، فلو كان لله شركاء في كونه لما قبلوا أن يكونوا في مركز أدنى، ولسعوا ليكونوا شركاء منافسين له في كل شيء[3].

---

(١) ينظر: تفسير الحديث، محمد عزة دروزة، (٢/ ٢٢١).
(٢) التفسير الموضوعي سورة الإسراء د/ محمد البهي (٤٠).
(٣) التفسير الحديث، محمد عزة دروزة، (٤/ ٢٣٦).

وقال تعالى مؤكدًا استحالة تعدد الآلهة، ومثبتًا للوحدانية: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ [المؤمنون: ٩١].

إن الآية أكدت بطريقة الحوار استحالة تعدد الآلهة؛ إذ إنها بينت وفق التسليم الجدلي أنه لو تعددت الآلهة عن طريق افتراض الولد أو الند؛ لاقتضى هذا أن يكون لكل إله مجاله المحدد والمعين من المخلوقات؛ لأن اتصافها جميعاً بالألوهية يستلزم - حتماً - مماثلتها في القدرة على الخلق والإيجاد، وإذا اقتسمت الآلهة مجالات المخلوقات بينهما فإن بعضها سيعلو ويطغى على البعض الآخر[(١)].

وقال ابن القيم: فلا بد من أحد أمور ثلاثة: إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه، وإما أن يعلو بعضهم على بعض، وإما أن يكونوا كلهم تحت قهر إله واحد يتصرف فيهم، ولا يتصرفون فيه، ويمتنع عن حكمهم ولا يمتنعون عن حكمه، فيكون وحده هو إله الحق.

وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي، وارتباط بعضٍ ببعض، وجريانه على نظام محكم، لا يختلف ولا يفسد من أول دليل على أن مدبره واحد[(٢)].

والخلاصة أن فساد العقيدة وانحرافها عن الجادة، وما شابها من خلط واضطراب، أنتج ممارسات تعبدية باطلة - كل ذلك مثل في النهاية دواعي رئيسة إلى استخدام أسلوب الحوار في القرآن الكريم، لأن إزالة ما تراكم على النفوس، وتخليص القلوب مما ران عليها من شرك ووثنية، لا يستقيم إلا بإيقاظ العقل الإنساني، وتنبيهه إلى فساد مسلكه في النظر والإدراك، وهذا يدعو حتماً إلى إعادة تحليل الأمور الواقعة، ومحاولة وضعها في نسق جديد، ووزنها بميزان صادق دقيق، وهو ما يقوم به الجدل والحوار.

---

(١) سورة المؤمنون، د/ محمد البهي ص (٤٨).
(٢) ينظر: التفسير القيم ص (٣٧١).

(ب) الحوار ونقد العادات الاجتماعية الفاسدة:

أفضى فساد العقيدة الذي ألم بالمجتمع الجاهلي، قبل ظهور الإسلام إلى شيوع الأمراض الاجتماعية، والرذائل الخلقية التي تجسد في النهاية حالة من التحلل الاجتماعي، وتفسخ العلاقات بين أبناء المجتمع العربي آنذاك فمن ذلك: قطع الأرحام، وإساءة الجوار، والبغي والظلم، والعدوان، والزنى، والربا . . . إلى غير ذلك من رذائل وآفات.

ومن الظواهر الاجتماعية، الفاسدة التي عرض لها القرآن الكريم، وأراد هدمها ظاهرة: (وأد البنات)[1]؛ (حيث كانت الواحدة منهن إذا بلغت السادسة من عمرها، يهيئ لها والدها حفرة، يدفعها فيها على حين غفلة منها ومن أمها، ويهيل عليها التراب، وكانت الأمهات ربما وأدن بناتهن حين الوضع، إذ كانت الحامل منهن إذا شعرت بدنو الولادة، تعمد إلى حفر حفرة تجلس على رأسها لحظة الوضع، فإذا كان المولود ذكراً أبقته وإذا كانت أنثى قذفتها في الهوة وأهالت عليها التراب)[2] ومن شأن استمرار هذه الظاهرة وبقائها القضاء على جنس الإنسان في الأرض ولذا صرف القرآن شيئًا من عنايته لبيان خطورة هذا العمل الجائر والتنبيه على فساده وما ينطوي عليه من جور وظلم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير].

يقول الدكتور شوقي إبراهيم[3]:

لا شك أن توجيه السؤال للمجني عليها دون الجاني الذي هو الأب، فيه إشعار بأن جوابها شهادة على إقامة الحجة عليه، وفي سؤالها عن الذنب الذي يمكن أن يكون قد اقترفته، فيه دلالة على أن الفاعل لم يكن لديه ما يدفع به

(١) ينظر: التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.
(٢) ينظر السابق.
(٣) طبيعة الحوار في القرآن ص (١٩٣).

عنه ارتكابه الجريمة من مؤيدات تبريرية.

قال الشيخ محمد الطاهر: «لأن السؤال عن تعيين الذنب الموجب للقتل، مع انتفاء الذنب، فيه إشعار بأن لا معذرة له في فعله، إذ لا شبهة له فيما صنع بها؛ فإن الشبهة قد تقتضي التخفيف في العقوبة»[١].

ومعنى هذا: أن عملية القتل كانت تحدث دون أن يكون للمقترفين أسباب موضوعية تسوغ لهم ارتكابهم تلك الفعال لتكون على الأقل دواعي التخفيف.

وعلى هذا فإذا ما تأملنا هذا السؤال، وجدناه يحمل في حد ذاته إقامة الحجة الظاهرة على فساد تلك الممارسة، وهكذا نجد أن انحراف بعض الظواهر الاجتماعية، كان قاضيًا بوجود الحوار في القرآن؛ ليتولى تشريح تلك العاهات التي لا تتلاءم وما يريده القرآن من إقامة مجتمع فاضل سليم.

ثانياً: بناء المفاهيم الصحيحة:

كما اعتمد القرآن الكريم على الحوار لنقد العقائد الباطلة، والتنبيه على انحراف بعض الظواهر الاجتماعية وبيان فسادها، نجده قد اعتمد عليه في سياق مقابل، وهو سياق بناء المفاهيم الصحيحة التي أراد لها أن تحل محل المفاهيم الباطلة.

ومن المفاهيم الصحيحة التي أراد القرآن أن يبينها ويدعو الناس إليها باستخدام الحوار: مفهوم الألوهية، لا سيما وقد شاب هذا المفهوم لدى العرب واليهود والنصارى فساد كبير، واضطراب عظيم، فلا جرم أن عني القرآن ببناء العقيدة الصحيحة.

وأساسها الأول: الإيمان بوجود خالق واحد، متصف بكل صفات

---

(١) المقدمات ص (١٨٣).

الكمال، منزه عن سائر صفات النقص، ومن أدوات هذا البناء: الجدل والحوار، من أجل إثبات البراهين، وإقامة الأدلة، وترسيخها في الأذهان.

قال الأستاذ العقاد: (أما القرآن فقد كان يخاطب قوماً ينكرون، وأقواماً يشركون، وأقواماً يدينون بالتوارة والإنجيل، ويختلفون في مذاهب الربوبية.

وكانت دعوته للناس كافة من أبناء العصر الذي نزل فيه، وأبناء سائر العصور فلزم تمحيص القول في الربوبية عند كل خطاب... وقامت دعوته كلها على تحكيم العقل) (١).

ولقد كان الحوار القرآني البليغ يخاطب العقول والأفئدة؛ لكي تتحرر من المفاهيم العقدية الباطلة، وتؤمن بنقيضها الصحيح، فتؤمن بأن الله واجب الوجود، وأنه رب الكون، ومالكه، وخالقه، ومدبر أمره، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة].

إن تلك الآيات الكونية الظاهرة، التي أشارت إليها آية سورة البقرة، وغيرها من الظواهر التي عرض لها القرآن الكريم، في حواره مع الخصوم والمعاندين، وساقها في معرض التدليل على وجود الله تعالى وإثبات وحدانيته وقدرته هي التي نعتها موريس بوكاي بالظاهرة العلمية، وهي التي دفعته إلى أن يقول: إن من المستحيل أن يكتب إنسان في القرن السابع الميلادي كل هذه الحقائق المجهولة آنذاك.

وقال أحد العلماء: إن لله كتابين: كتاباً مخلوقاً هو الكون، وكتاباً منزلًا هو القرآن، ويرشدنا هذا إلى طرق العلم بذاك، بما أوليناه من العقل (٢).

---

(١) الله، ص (٢٣٣).
(٢) ينظر: تفسير الشيخ أحمد مصطفى المراغي (٢/ ٣٧).

ثالثاً: الرد على الشبه والافتراءات:

من الدواعي الموضوعية للحوار في القرآن الكريم دحض شبه المشركين وتفنيد افتراءات أهل الكتاب ومزاعمهم التي أثاروها حول العقيدة الإسلامية، فمن ذلك - على سبيل المثال - قولهم: (إن البشر لا يكون رسولاً)، حيث زعم هؤلاء أن لا سبيل إلى الجمع بين البشرية والنبوة، أو الرسالة في ذات واحدة، فكذبوا رسول الله ﷺ ولم يؤمنوا برسالته لكونه بشراً.

وهذه الشبهة قديمة قدم النبوة والرسالة، أثيرت في وجه الأنبياء والرسل السابقين، فأثارها قوم نوح وطعنوا بها في نبوته، قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون].

وأثارها كذلك قوم صالح فقالوا: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤].

وردد هذه الشبهة كذلك آل فرعون، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المؤمنون].

والشبهة نفسها لهج بذكرها مشركو مكة، واستندوا إليها في إنكار نبوة محمد ﷺ، وقد روى ابن هشام في سيرته أن رسول الله ﷺ كان يقال له: لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس، ويرى معك؟![1].

فقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: ٩٤] وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] وقال

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣١).

تعالى حاكياً مقولتهم : ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان].

قال الدكتور محمد البهي : ادعاء المكيين من الماديين المشركين بأن رسالة الله لا يأتي بها إنسان، إنما يُكلَّف بها ملك من الملائكة؛ ادِّعاء كان شائعاً بين المعارضين للرسل السابقين ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: ٣١] والذين لا يرجون لقاء الله هم الماديون الذين ينكرون الآخرة في عهد كل رسول.

وقد أبطل القرآن الكريم هذه الشبهة على النحو الآتي(١) :

لا يلزم من كونه بشرًا منع كونه رسولًا؛ إذ إن المثلية في البشرية لا تقتضي لزوم المثلية في القيمة الأخلاقية، ولو وقع التسليم جدلًا بأن يرسل ملكًا لزم عليه أن يكون لابساً للصورة الآدمية، لتعذر الاتصال بالبشر في صورته الملائكية، وتعذر مخاطبتهم وإفهامهم الدعوة بحكم اختلاف طبائع الملائكة عن طبائع البشر.

ولو ظهر في الصورة الآدمية للزم عليه وقوعهم في نفس الإشكال؛ ولقالوا: إنما هو بشر وليس ملكًا.

ولذلك قال الله تعالى في رد هذه الشبهة:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام].

فهذا تأكيد على أن الرسل لا يمكن أن يكونوا إلا من البشر، دحضاً للفكرة العارضة، وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء].

---

(١) ينظر: طبيعة الحوار في القرآن، شوقي إبراهيم، ص (١٩٨).

أي لو وجد في الأرض ملائكة يمشون كما يمشي البشر، ويقيمون فيها كما يقيمون، لنزلنا عليهم رسلًا من الملائكة، ولكن لما كانت طبيعة الملك لا تصلح للاجتماع، ولا تصلح لأن يتخاطب الملك مع البشر، ويتفاهم معهم، لزم عدم بعث ملائكة للقيام بمهمة النبوة، ومن هنا اعتبر القرآن بعث الرسل من البشر من النعم التي أنعم بها على عباده: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

إن رد القرآن هذه الشبهة أمر ضروري ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

مسالك القرآن الاستدلالية في الرد على الخصوم:

امتاز منهج الحوار القرآني، بتنوع أساليب الاستدلال في مناقشة الخصوم والرد عليهم، وقد ذكر أحد الباحثين بعضاً من هذه الأساليب نسوقها فيما يلي[1]:

١- التسليم:

وهو أن يفرض المحال إما منفيًا، أو مشروطاً بحرف الامتناع؛ لكون المذكور ممتنع الوقوع؛ لامتناع وقوع شرطه، ثم يسلم وقوع ذلك تسليماً جدليًا ويدل على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه كقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون].

والمعنى ليس مع الله من إله، ولو سلم أن معه سبحانه إلهاً، للزم من ذلك التسليم بذهاب كل إله من الاثنين بما خلق، وعلو أحدهما على الآخر، فلا

(١) ينظر: طبيعة الحوار في القرآن، شوقي إبراهيم ص (١٩٩ - ٢٠٦).

يتم في العالم أمر، ولا ينفذ فيه حكم، ولا تستقر أحواله، والواقع خلاف ذلك، ففرض إلهين أو أكثر محال وهذا النوع من الاستدلال قريب الشبه من قياس الخُلْف، إلا أنه ينفرد عنه بالتسليم الجدلي الوارد في الخيال لا في الواقع.

٢- الانتقال في الاستدلال:

وهو أن ينتقل المستدل من دليل إلى دليل، ومن مثال إلى مثال؛ لعدم فهم الخصم وجه الدلالة من الدليل أو المثال، أو فهمه وجه الدلالة ولكنه يقصد المغالطة، فيؤتى بدليل أو مثال آخر لا يجد الخصم معه مفرًا دون الانقطاع أو التسليم.

ومن أمثلة هذا ما حكاه الله في محاورة إبراهيم عليه السلام للنمروذ حيث قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة].

يذكر ابن كثير أن النمروذ طلب من إبراهيم عليه السلام دليلًا على وجود الرب الذي يدعو إليه[1].

فيكون موضوع المحاورة: دعوى إبراهيم عليه السلام أن الله هو الرب، وقد استدل على ذلك بأنه يحيي ويميت، أي يهب الحياة لمن يشاء من الأجسام فتنمو، أو تنمو وتتحرك، ثم ينزع منها الحياة فتموت.

وقد عارضه النمروذ بدليل مماثل -على زعمه- فقال: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ﴾ لأني أعفو عمن استحق القتل، فأكون قد أحييته، أي وهبته حياة وأعدم من

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣١٣).

أشاء من الناس فأكون قد أمتُّه، أي سلبت منه الحياة، ولم يشأ إبراهيم أن يدخل في إبطال دليل خصمه؛ لأنه يعرف أن هذه المعارضة فاسدة؛ لأن حقيقة الإحياء والإماتة التي فسرها النمروذ غير التي يقصدها إبراهيم عليه السلام، فانتقل لإلزامه وإفحامه وقطع لجاجته؛ إذ إن حال النمروذ لا يخلو إما أن يكون لم يفهم حقيقة الإحياء والإماتة، أو فهم ذلك ولكنه قصد المصادمة والمباهتة، وكلاهما يوجب العدول إلى دليل يفضح معارضته ويقطع حجاجه، ومتى كان الخصم بهذه المنزلة جاز لخصمه الانتقال إلى دليل آخر، أقرب إلى الفهم وأفلح للحجة[١]، وهو ما فعله إبراهيم الخليل عليه السلام؛ حيث قال للنمروذ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ وعندئذ أسقط في يد النمروذ، وانقطعت لجاجته.

٣- المناقضة:

هي تعليق الأمر على مستحيل للدلالة على استحالة وقوعه[٢]، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

٤- مجاراة الخصم لإفحامه:

وذلك بأن تسلم للخصم بعض مقدماته، مع الإشارة إلى أنها لا تنتج ما يريده هو، بل هي مساعدة على إنتاج ما تريده أنت، وذلك مثل قوله تعالى:

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا

---

(١) استخراج الجدال من القرآن ص (٧) ابن الحنبلي، مخطوط رقم (٣٤٠) دار الكتب، رقم (٦٦٩).
(٢) ينظر: الإتقان للسيوطي (٤/٥٧).

﴿بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم].

فكأن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - قالوا في الرد على المنكرين لنبوتهم: ما ادعيتم من كوننا بشراً حق لا ننكره، ولكن دعواكم هذه لا تنتج عدم الرسالة، ولا تنافي أن يمن الله علينا بها، بل البشرية شرط في الرسالة إلى عامة البشر، فإن سنة الله جرت بأن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم، يعرفون قدره، وصدقه، وأمانته، يقول الله موضحاً ذلك:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء].

فواضح أن مجاراة الخصم فيها تسليم ببعض المقدمات، مع بيان أن هذه المقدمات غير مانعة من نقيض قصدهم، فهي مراد لا يمنع من الإيراد، وفي مجاراة الخصم اجتذاب له، وإذا سلمت بعض مقدماته فعليه أن يسلم بالنتائج الصحيحة، وإلا وقع في الإلزام.

٥- الاستدلال بالتعريف:

إن الاستدلال بالتعريف: هو أن يؤخذ من ماهية موضوع القول دليل الدعوى[(١)].

وذلك بأن يتخذ المحاور من حقيقة الأصنام دليلًا يثبت أنها لا تصلح أن تكون معبوداً، أو أن يتخذ من بيان صفاتها دليلًا على أن يكون الله وحده المستحق للعبادة.

وهذا النوع من الاستدلال موجود بكثرة في القرآن، نذكر منه على سبيل المثال: ما استخدمه إبراهيم - عليه السلام - لإثبات أن الأصنام لا تستحق

---

(١) المعجزة الكبرى، الشيخ محمد أبو زهرة، ص (٣١٦).

العبادة.

فها هو يقول لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٤٢].

ويقول لأبيه مع قومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]

﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنبياء].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ [العنكبوت: ١٧].

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الصافات].

وها هو ينهال عليها ضرباً باليمين، ويتركها جذاذاً إلا كبيراً لهم، ولما سئل: ﴿ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء].

إن الآيات السابقة، وما احتوته من استفهامات إنكارية، وتعجبات توبيخية، كان القصد منها أن يبين عليه السلام، أن ما لا يسمع شيئاً من المسموعات، ولا يبصر شيئاً من المبصرات، ولا يجلب نفعاً، ولا يدفع ضرراً، لا يستحق العبادة إذ العبادة غاية منتهى التعظيم، فلا يستحقها إلا الخالق النافع الضار.

وقد أخرج كلامه عليه السلام، عندما قال: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ مخرج التعريض لهم بما يوقعهم في الاعتراف، بأن الجمادات التي عبدوها ليست بآلهة[١].

قال القرطبي في تفسيره: «بين أن من لا يتكلم ولا يعلم، لا يستحق أن

---

(١) فتح القدير، الشوكاني، (٣/ ٤١٤).

يعبد، وكان قوله من المعاريض؛ ليقولوا إنهم لا ينطقون، ولا ينفعون، ولا يضرون، فيقول لهم: فلم تعبدونهم؟ فتقوم الحجة عليهم منهم»[1].

وقد بين الشيخ المراغي وقع الحجة، وتأثيرها على من قامت عليهم بقوله:

وقد كانت مقالة إبراهيم عليه السلام، قوية الحجة شديدة الوقع في نفوسهم، وكأنما ألقمهم حجراً، وذلك ما أشار إليه بقوله: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنبياء: ٦٤] بالملامة إذ علموا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه، ولا على إلحاق الضرر لمن ألحق به الأذى، يستحيل أن يقدر على دفع مضرة من غيره، أو جلب منفعة له، وإذًا فكيف يستحق أن يكون معبوداً[2]؟!

وإذا نظرنا في استدلال إبراهيم - عليه السلام - أمكن تقريره كما يلي:

إن الأصنام أو التماثيل، إنما هي جمادات ميتة لا تتكلم، ولا تعلم ولا تستطيع أن تجلب منافع ولا أن تدفع ضرراً.

وكل ما كان حاله كذلك: لا يستحق تقديراً ولا تعظيماً، ولا يصح في العقل أن يتصف بالألوهية من لا يملك حولًا ولا قوة، فالأصنام إذن ليست حقيقة بأن تتصف بالألوهية، وليست جديرة بأن تعبد، المهم أن إبراهيم عليه السلام قد اتخذ من ماهية الأصنام ومن التعريف بحقيقتها دليلًا أو أدلة، على عدم امتلاكها مؤهلات الألوهية، وعدم استحقاقها للعبادة.

٦- الاستدلال بالتجزئة:

التجزئة: هي أن تذكر أجزاء الموضوع المراد بيانه، وبتتبع تلك الأجزاء

---

(١) تفسير القرطبي (٩/ ٣٤٠).
(٢) المراغي، التفسير (١٧/ ٤٩).

وتحليلها، وتشريحها وتقييمها، يكون الحكم عليها بالإثبات أو النفى، أي: إثبات ما يراد إثباته، وذلك بالتدليل على إبراز مقومات الصحة فيه، حتى يقع ترسيخه وتدعيمه، ونفي ما يعارضه، وذلك بإقامة الحجة على بطلانه[1]، والتنبيه على فساده، وقد استعمل القرآن في حواره الاستدلال بالتجزئة إذ إنه كثيراً ما يتناول آياته الحكيمة ويجزئها؛ ليبين أن كل جزء منها يصلح وحده أن يكون دليلًا على ما يراد إثباته أو بطلانه.

إثبات أن الله حقيق وحده بالعبادة:

أ- التبكيت الإلزامي:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل] إن هذه الآية تضمنت أمرًا موجهًا لرسول الله ﷺ، بأن يحمد الله ويثنى عليه، ويشكره على ما أعطى من نعم، وعلى ما وهب من خيرات، وأن يسلم على الذين اصطفاهم؛ لأنهم بينوا آيات الله وتحملوا ما اقتضته من إتعاب، حتى نصرهم الله وأهلك أعداءهم؛ لتكذيبهم آيات الله على الرغم من ظهورها ووضوحها، وإذا كان الله من أفعاله الحكيمة أنه يبعث الرسل ويصطفيهم؛ ليبلغوا هداياته، وإذا كان الله من سننه أن ينصر عباده، ويؤيدهم، ويظهرهم، ويهلك من أعرض. وإذا كانت الأصنام لم تستطع أن تدافع عمن والاها، ولا يمكن أن تبعد عنه ضرراً، فمن أولى بالعبادة والشكر والحمد؟! ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

إنه استفسار إنكاري فيه تهكم وتقريع، وموازنة جارية على أساليب العرب، التي تسمح بأن تقارن بين السعادة والشقاء؛ إذ إنه من البين أنه ليس فيما أشركوا به تعالى شائبة خير حتى يوازن بينها وبين من لا خير إلا خيره ولا إله إلا هو، ومن هنا قيل: إن النبي ﷺ لما سمع هذا قال: «بل الله خير وأبقى، وأجل وأكرم»[2].

---

(١) في القرآن فعالية في بناء العقلية الإسلامية، د محمد التومي ص (١٨).
(٢) تفسير الشيخ أحمد مصطفى المراغي (٦/٢٠).

ب- الدعوة لاستقراء بعض أجزاء الكون:

ونلحظ هذا في قول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل].

* * *

المبحث الثاني

الحوار في السنة

لقد كانت سيرة رسول الله ﷺ وسنته الطاهرة، التطبيق العملي للمنهج الإسلامي في الحوار مع الآخر، فلقد رسم رسول الله ﷺ من خلال المُثُل والقدوة معالم وقسمات أسلوب التعامل مع الآخر، نصرانيًا كان أو يهوديًا أو مجوسيًا، حيث كان ﷺ يوضح في أمره أو نهيه أو فعله المعنى المقصود لأصحابه، والهدف المنشود من التعامل مع الآخر والحوار معه.

ومن الثابت تاريخيًا: أن أول هجرة للمسلمين من مكة؛ طلباً للحماية؛ وأملًا في الجوار الآمن كانت إلى الحبشة، وكان ملكها النجاشي نصرانيًا، وأوضح الرسول ﷺ لصحابته هذا المعنى النبيل الذي اختار لأجله الهجرة إلى الحبشة دون غيرها، فقال لصحابته: «اذهبوا إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم أحد عنده» فإن العدل الذي افتقده المسلمون الأوائل في مكة، جعلهم يطلبونه عند النجاشي النصراني هرباً من الظلم الذي حاق بهم في بلدهم مكة، فخرجوا منها سرًا؛ طلباً للعدل، وهرباً من الظلم، وكان النجاشي هو ذلك الملك العادل الذي كفل لهم الحماية من بطش طواغيت مكة، ولم يجد الرسول ﷺ في ذلك شيئاً من الحساسية التي قد يظنها البعض من أصحاب النظرة القاصرة عائقاً تحول دون التعامل مع النجاشي بدعوى أنه غير مسلم، ولم يدر ذلك بخلد الرسول ﷺ أبداً، ولم يرفضه أحد من صحابته بدعوى أنه نصراني، والذي يقرأ ذلك الحوار الرائع، الذي أجراه النجاشي مع المهاجرين، يدرك تماماً عظمة الرسول ﷺ في ذلك الاختيار للنجاشي؛ ليكون هو النموذج للملك العادل، الذي يحتمي عنده حملة لواء الدعوة الإسلامية في أول عهدها، فلقد أبان هذا الحوار عن حصافة النجاشي، ورجاحة عقله، ونبل مقصده، هذا الحوار الذي أجراه مع المهاجرين بزعامة

جعفر بن أبي طالب فإن من يدرك طبيعة الأسئلة التي كان يطرحها النجاشي على الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب، والإجابات التي كان يسمعها منه، يعلم تماماً أن الحوار الذي دار بينهما كان نموذجًا رائعًا؛ فكرًا، وثقافة، وحضارة؛ لأن الإنصاف ونشدان الحق كانا هدفاً للجميع، حيث كان الحق مقصده وهدفه، وليس التعصب، والمعاندة، والمكابرة(١).

وقد حفظ لنا ابن هشام في سيرته تفاصيل هذا الحوار العجيب الشائق، بين النجاشي ملك الحبشة وبين جعفر بن أبي طالب رئيس المسلمين المهاجرين إلى أرض الحبشة، نسوقه فيما يلي لإبراز ملامح المنهج الإسلامى في الحوار مع الآخر، كما بينته سيرة رسول الله ﷺ، فعن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار النجاشي، أمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فجمعوا له أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار، عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا

(١) ينظر: لغة الحوار بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، محمد السيد الجليند، (٢٣٦-٢٣٧).

أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم، ليردوهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم؛ من آبائهم، وأعمامهم، وعشائرهم؛ لتردهم إليهم، وهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي، قالت: فقالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم، قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لاها اللهِ، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول: والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن، فلما جاءوا، وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا (به) في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب - رضوان الله عليه - فقال له: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا

الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله؛ لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - قالت: فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك، قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت : فقال له جعفر: نعم ، فقال له النجاشي: فاقرأه علي، قالت: فقرأ عليه صدراً من: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال: (لهم) النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى، ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون.

قالت: فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم. قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد، قالت: ثم غدا عليه (من) الغد، فقال (له): أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولًا عظيمًا، فأرسِلْ إليهم فسَلْهم عما يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم؛ ليسألهم عنه، قالت:

ولم ينزل بنا مثلها قط، فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائنًا في ذلك ما هو كائن، قالت: فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ قالت: فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، (يقول): هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذَ منها عوداً، ثم قال: والله ماعدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، قالت: فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي.

والشيوم: الآمنون - من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ما أحب أن لي دَبْراً من ذهب وأني آذيت رجلًا منكم.

قال ابن هشام: ويقال: دَبْراً من ذهب، ويقال: فأنتم سيوم والدبر (بلسان الحبشة): الجبل- ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ فأطيعهم فيه.

قالت: فخرجا من عنده مقبوحين، مردوداً عليهما ماجاءا به، وأقمنا عنده بخير دار، مع خير جار.

قالت: فوالله إنا لعلى ذلك، إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه في ملكه. قالت: فوالله ما علمتُنا حِزَنًا حزنًا قط كان أشد (علينا) من حزن حزناه عند ذلك، تخوفًا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي، فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه، قالت: وسار إليه النجاشي وبينهما عرض النيل، قالت: فقال أصحاب رسول الله ﷺ: من رجل يخرج حتى يحضر

وقيعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ قالت: فقال الزبير بن العوام: أنا، قالوا: فأنت، وكان من أحدث القوم سنًّا، قالت: فنفخوا له قربة فجعلها في صدره، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم، قالت: فدعونا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده، قالت: فوالله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن، إذ طلع الزبير وهو يسعى، فلمع بثوبه وهو يقول: ألا أبشروا فقد ظفر النجاشي، وأهلك الله عدوه، ومكن له في بلاده، قالت: فوالله ماعلمتنا فرحنا فرحة قط مثلها، قالت: ورجع النجاشي، وقد أهلك الله عدوه، ومكن له في بلاده، واستوثق عليه أمر الحبشة، فكنا عنده في خير منزل، حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة[(١)].

وفي الحق أن إيثار رسول الله ﷺ أرض الحبشة دون سواها، لتكون مهجراً للمسلمين، وما دار أثناء إقامة المسلمين بها من حوار بين النجاشي وبين جعفر بن أبي طالب، يرشدنا في وضوح إلى نظرة الإسلام الصحيحة إلى الآخر، ورغبته في إقامة علاقات معه، أساسها الحوار من أجل الاهتداء إلى الحق وبلوغ الهداية، شريطة أن تصدق النوايا، وتخلص لطلب الحق، وليس عجيبًا بعد ذلك أن نعلم أن النجاشي قد شرح الله صدره للإسلام ومات مسلمًا، وقيل: إن رسول الله ﷺ لما علم بوفاته، صلى عليه وأمر أصحابه بالصلاة عليه، وقال لهم: «صلوا على أخ لكم مات بأرض الحبشة».

وكذلك لم يجد رسول الله ﷺ غضاضة في أن يتخذ رجلًا من المشركين دليلًا له في هجرته إلى المدينة، وهو عبد الله بن أريقط، رجل من بني الدئل ابن بكر، وكانت أمه امرأة من بني سهم بن عمرو، وكان مشركًا [(٢)].

(١) ينظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (١/ ٤٥) ط. الحلبي.
(٢) ينظر: مختصر سيرة ابن هشام (١/ ٣٠٠).

ونكتفي بهذين المثالين لبيان نظرة الإسلام إلى الآخر غير الإسلامي، ودعوته إلى الحوار معه، ومد جسور التعاون والتواصل بيننا وبينه، لتحصيل الخير والمنفعة للحياة الإنسانية.

الحوار الإسلامي - الإسلامي كما بينته السنة:

مقصودنا من هذا العنوان أن نبين كيف كان الحوار بين المسلمين أنفسهم، في إطار المجتمع الإسلامي ذاته، وأن نشرح الضوابط والآداب التي تحكم هذا الحوار، وتحدد طرائقه ومساراته، لتأكيد أن الإسلام دعا إلى الحوار مع الخصوم والمعاندين، ومع أبناء الجماعة الإسلامية جميعًا، وأن الحوار كان آلية إسلامية للتواصل مع الآخر غير الإسلامي، ولتضييق مساحة الاختلاف ونبذ عوامل الفرقة والاختلاف بين المسلمين أنفسهم.

وفي هذا السياق نجد المسلمين تحاوروا وتناقشوا، وتجادلوا في أمور كثيرة مع رسول الله ﷺ، وكانت تلك الحوارات وهذه المناقشات نموذجاً رفيعاً لأدب الجدل وفن المناقشة الذي أرسى دعائمه وبين ملامحه وقسماته القرآن الكريم، حين علم الصحابة أدب الحديث مع رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «هذا أدب ثانٍ أدب الله تعالى به المؤمنين ألا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته، وقد روي أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما»[1].

وقد روى البخاري بسنده عن ابن أبي مليكة قال: «كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس رضي الله عنه أخي بني مجاشع،

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٢٠٧).

وأشار الآخر برجل آخر، قال نافع: لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات].

قال ابن الزبير رضي الله عنه: فما كان عمر رضي الله عنه يُسْمِع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه»[1].

وهكذا أرشدت الآية الكريمة الواردة في سورة الحجرات الصحابة رضي الله عنهم إلى أدب الخطاب، والطريقة التي ينبغي أن يكون عليها الحوار بينهم وبين رسول الله ﷺ.

وفي الحق أن الآية الكريمة مثلت لدى الصحابة المبدأ الأساسي الذي حكم منهج الحوار لديهم في حياة رسول الله ﷺ وبعد وفاته.

ومن ناحية أخرى كان صحابة النبي ﷺ يتحرون أن يكون جدالهم وحوارهم ومناقشتهم لرسول الله ﷺ في المسائل التي لم ينزل فيها وحي، ولم يقطع فيها ﷺ برأي، فكانوا رضوان الله عليهم قبل أن يناقشوا أمراً من الأمور، أو يتحاوروا في مسألة من المسائل يسألون النبي ﷺ: أهذا الأمر وحي أو حكم نبوي، أم هو الرأي والمشورة؟

فإن كانت الأولى كفوا عن المناقشة، وأعرضوا عن الجدال والحوار، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور].

أما إذا كان هذا الأمر مما يقبل المشاورة والحوار بينهم وبين رسول الله ﷺ فقد رأيناهم يدلون برأيهم فيه، ويعرضون وجهة نظرهم.

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٥٦٥) كتاب التفسير، باب ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ حديث (٤٧٤٥).

والشواهد الدالة على ذلك كثيرة، منها:

(١) مجادلة خولة بنت ثعلبة لرسول الله ﷺ حين ظاهر منها زوجها أوس ابن الصامت، قال تعالى في ذلك: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة].

وعن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾(١) [المجادلة].

قال الإمام أحمد: حدثنا سعد بن إبراهيم ويعقوب قالا: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن إسحاق حدثني معمر بن عبد الله بن حنظلة عن يوسف بن عبد الله ابن سلام بن خويلة بنت ثعلبة، قالت: فيَّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه، قالت: فدخل علي يومًا فراجعته بشيء فغضب، فقال: أنت عليّ كظهر أمي. قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل علي فإذا هو يريدني عن نفسي، قالت: قلت: كلا فامتنعت منه، والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إلى وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فواثبني فامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني،

(١) أخرجه البخارى (١٥/ ٣٢٤) معلقًا، كتاب التوحيد باب ﴿وكان الله سميعًا بصيرًا﴾.

قالت ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثياباً، ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه» قالت: فوالله ما برحت حتى نزل في قرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سُرِّي عنه، فقال لي: «يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآنا» - ثم قرأ علي ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَـٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ - إلى قوله تعالى: - ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: «مريه فليعتق رقبة» قالت: فقلت يا رسول الله: ما عنده ما يعتق قال: «فليصم شهرين متتابعين» قالت: فقلت: والله إنه لشيخ كبير ما له من صيام قال: «فليطعم ستين مسكيناً وسقا من تمر» قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «فإنا سنعينه بفرق من تمر» قالت: فقلت: يا رسول الله وأنا سأعينه بفرق آخر، قال: «قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصى بابن عمك خيراً»، قالت: ففعلت[١].

والظهار- بكسر الظاء المعجمة- مشتق من الظهر، وهو قول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي. وإنما خص الظهر بذلك دون سائر الأعضاء؛ لأنه محل الركوب غالباً، ولذلك سمي المركوب ظهراً فشبهت الزوجة بذلك؛ لأنها مركوب الرجل.

وقد ذهب الجمهور إلى أن الظهار يختص بالأم كما ورد في القرآن، فلو قال: كظهر أختي مثلاً، لم يكن ظهاراً، وكذا لو قال: كظهر أبي؛ وفي رواية عن أحمد: أنه ظهار، وطرده في كل من يحرم عليه وطؤه حتى في البهيمة[٢].

وكان الظهار فى الجاهلية طلاقاً، فأرخص الله لهذه الأمة، وجعل فيه

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤١٠).
(٢) نيل الأوطار، للشوكاني (٦/ ٣٠٧، ٣٠٨).

كفارة، ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم، هكذا قال غير واحد من السلف[١].

وهكذا كانت مراجعة خولة بنت ثعلبة لرسول الله ﷺ وجدالها معه سبباً في نزول تشريع الظهار، تخفيفاً على المسلمين ورخصة لهم.

(٢) حوار الصحابة رضوان الله عليهم ومناقشتهم لرسول الله ﷺ في مصير أسرى بدر، حيث روى أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة - بعد انتصاره على المشركين في بدر - وزّع الأسرى بين أصحابه، وقال لهم: «استوصوا بالأسرى خيراً». فلما استقر به المقام جمع كبار الصحابة وأخذ يستشيرهم في أمر الأسرى، فقال لهم ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله كذبوك وأخرجوك، فقدمهم فاضرب أعناقهم، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله أنت في واد كثير الحطب فأضرم الوادي عليهم ناراً ثم ألقهم فيه، قال: فقال العباس: قطعت رحمك. قال: فسكت رسول الله ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً، ثم قام فدخل، فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم - عليه السلام - قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى - عليه السلام - قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة] وإن مثلك يا عمر كمثل موسى - عليه السلام- قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وإن مثلك

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٢٠).

يا عمر كمثل نوح - عليه السلام - قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] أنتم عالة فلا ينفكن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق. قال ابن مسعود: قلت: يا رسول الله، إلا سهيل بن بيضاء، فإنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع علي حجارة من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: إلا سهيل بن بيضاء، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ . . . إلى آخر الآية[(١)].

ثم نظم بعد ذلك أمر فداء الأسرى، فكان الرجل يفادي على قدر ثروته ومكانته بين قومه، فتراوح فداء الأسير بين ألف إلى أربعة آلاف درهم. وكان أهل مكة يعرفون الكتابة وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يستطع أن يفتدي نفسه بمال كان عليه أن يعلم عشرة من المسلمين الكتابة، وكان زيد بن ثابت ممن عُلِّم، أما من كان فقيراً لا مال له ولا يعرف الكتابة فقد من عليه الرسول ﷺ فأطلق سراحه دون فداء.

(٣) اختلاف المسلمين في الأنفال يوم بدر وجدالهم في هذا الشأن، فنزل فيه قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال].

فعن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟

(١) أخرجه الترمذي (١٧١٤)، (٣٠٨٤)، وأحمد (١/ ٣٨٣)، وأبو يعلى (٥١٨٧).

﴿اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الربع، فإذا أقبل راجعاً نفل الثلث، وكان يكره الأنفال[1].

(٤) الحوار بين النبي ﷺ وبين الصحابة في أمر الخروج لملاقاة المشركين في أحد، حيث قال النبي ﷺ لأصحابه:

«فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها»، وكان رأي عبد الله بن أبي ابن سلول مع رأي رسول الله ﷺ، يرى رأيه في ذلك، وألا يخرج إليهم، وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج، فقال رجال من المسلمين، ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيره، ممن كان فاته بدر: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا؟ فقال عبد الله بن أبي ابن سلول: يا رسول الله، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا. فلم يزل الناس برسول الله ﷺ، الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم، حتى دخل رسول الله ﷺ بيته، فلبس لَأْمَتَهُ، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة. وقد مات في ذلك اليوم رجل من الأنصار يقال له: مالك بن عمرو، أحد بني النجار، فصلى عليه رسول الله ﷺ، ثم خرج عليهم وقد ندم الناس، وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ ولم يكن لنا ذلك. فلما خرج عليهم رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله: استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل»، فخرج رسول الله ﷺ في ألف من أصحابه[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٣١٩)، وابن ماجه (٢٨٥٢)، والترمذي (١٥٦١).
(٢) انظر: الدر المنثور (٢/٦٧، ٦٨).

وقال ابن هشام: واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس.

(٥) أنكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله ﷺ أمر الصلح مع المشركين فيما عرف في سيرة رسول الله ﷺ بصلح الحديبية سنة ست من الهجرة، وتحاور في هذا الشأن مع أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

قال ابن إسحاق: قال الزهري: ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو، أخا بني عامر بن لؤي، إلى رسول الله ﷺ وقالوا له: ائت محمداً فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا أن دخلها علينا عنوة أبدا. فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلًا، قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل. فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام، وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح[١].

عمر ينكر على الرسول ﷺ الصلح:

فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر، الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني!» قال: فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق، من الذي صنعت يومئذ! مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً[٢].

---

(١) مختصر سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٢، ٤٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٦٧٥) كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحروب وكتابة الشروط (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٦) مناقشة الأنصار لرسول الله ﷺ في توزيع غنائم حنين على المبايعين، فعن ابن عباس قال: بايع رسول الله ﷺ من قريش وغيرهم، فأعطاهم يوم الجعرانة من غنائم حنين، فأعطى رجالًا من بني أمية بن عبد شمس، ومن بني عبد الدار بن قصي، ومن بني مخزوم بن يقظة ومن بني عدي بن كعب، ومن بني جمح بن عمرو، ومن بني سهم، ومن بني عامر بن لؤي، ومن بني قيس، ومن بني عامر بن صعصعة، ومن بني نصر بن معاوية، ومن بني سليم بن منصور، ومن بني تميم، ومن بني غطفان[(١)].

وقد روي أن قائلًا قال لرسول الله ﷺ من أصحابه: يا رسول الله، أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة، وتركت جعيل بن سراقة الضمري. فقال رسول الله ﷺ: «أما والذي نفس محمد بيده، لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلهم مثل عيينة بن حصن والأقرع بن حابس، ولكني تألفتهما ليسلمان، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه»[(٢)].

وعن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا، في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت منهم القالة، حتى قال قائلهم: لقد لقي والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي. قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة». قال: فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة. قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم. فلما اجتمعوا له أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من

---

(١) السابق (٢/ ١٩٢-١٩٣).
(٢) السابق (٢/ ١٩٣).

الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «يا معشر الأنصار: ما قالةٌ بلغتني عنكم، وجِدَةٌ وجدتموها علي في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالًا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم!» قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل، ثم قال: «ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال ﷺ: «أما والله لو شئتم لقلتم، فلَصَدَقْتُم ولَصُدِّقْتُم: أتيتنا مكذَّباً فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلًا فآسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ والذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعبا، لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»[١].

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًّا. ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا.

(٧) ومن أمثلة اختلاف الصحابة وما وقع بينهم من حوار وجدال في حياة النبي ﷺ في بعض الأحكام: ما أخرجه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها - أي ديار بني قريظة - وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحداً منهم.

وظاهر الحديث أن الصحابة رضوان الله عليهم انقسموا إلى فريقين في موقفهم من صلاة العصر في بني قريظة، ففريق أداها حين أدركته في الطريق

(١) السابق (٢/ ١٩٤-١٩٥).

بتأويل أمر رسول الله ﷺ بأنه إنما أراد سرعة اللحوق ببني قريظة، وفريق التزم أمر رسول الله ﷺ حرفيًا دون تأويل، فلم يؤد الصلاة إلا حين بلغ ديار بني قريظة. وقد صوب الرسول الكريم اجتهاد كلا الفريقين فلم يعنف أحداً.

ومن ذلك أيضاً ما أخرجه أبو داود والحاكم من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت الصبح، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «يا عمرو وصليت بأصحابك وأنت جنب؟!» فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] فضحك ﷺ ولم يقل شيئا[١].

ويقودنا ذلك إلى الإشارة في إيجاز إلى منهج الصحابة رضوان الله عليهم في الاجتهاد، لارتباط ذلك ارتباطًا وثيقًا بموضوع أدب الاختلاف والحوار في الإسلام يقول الشيخ خليل الميس مفتي البقاع:

من المسلمات عند المسلمين أن التشريع حق الله تعالى وحده، وعلى المسلمين التسليم لهذا الشرع قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

ولما أتى عمر إلى رسول الله ﷺ بنسخة من التوراة وقرأ بعض ما فيها، قال ﷺ:

«أمتهوِّكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟ لقد جئتكم ببيضاء نقية. ولو كان موسى حيًا لما وسعه إلا اتباعي»[٢].

مخالفة النصوص:

لم يكن الصحابة يقدمون على النصوص قول أحد مهما علت منزلته، ومن

---

(١) أخرجه أبو داود (١/ ١٤٥) كتاب الطهارة، باب إذا خاف الجنب البرء أيتيمم (٣٣٤).
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧).

ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن مروان بن الحكم قال: شهدت عثمان وعليًا رضي الله عنهما- وعثمان ينهي عن متعة الحج، وأن يجمع بينهما- فلما رأى علي أهل بهما' لبيك اللهم بعمرة وحجة، قال: ما كنت لأدع سنة رسول الله ﷺ لقول أحد[1].

الرجوع عن الرأي إلى الدليل:

إن الخطيب البغدادي وابن قيم الجوزية عرضا في مصنفاتهما لعشرات المسائل لعدد من الصحابة الذين نقل عنهم الرجوع عن آرائهم التي رأوها إلى أحاديث رسول الله ﷺ منها: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول: لا ترث الزوجة من دية زوجها شيئاً، حتى قال الضحاك بن سفيان رضي الله عنه: كتب إلى رسول الله ﷺ أن أورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها، فرجع عمر»[2].

وهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يكري أرض آل عمر، فسأل رافع بن خديج، فأخبره أن رسول الله ﷺ نهى عن كراء الأرض فترك ذلك ابن عمر[3].

وسأل أبو الجوزاء ابن عباس عن الصرف فقال له: يدًا بيد لا بأس به؟ ثم حج أبو الجوزاء مرة أخرى. فجاء ابن عباس فسأله، فقال: وزناً بوزن، فقال أبو الجوزاء: أفتيتني اثنين بواحدة، فلم أزل أفتي به مذ أفتيتني، فقال ابن عباس: كان ذلك عن رأي، وهذا أبو سعيد الخدري يحدث عن النبي ﷺ .. فتركت رأيي لحديث رسول الله ﷺ[4].

ولقد كان حوار الصحابة رضي الله عنه فيما بينهم، ومناقشتهم وجدالهم

(١) أخرجه البخارى (١٥٦٣)، ومسلم (١٥٩/١٢٢٣).
(٢) أخرجه أحمد (٣/٤٥٢)، وأبو داود (٢٩٢٧)، وابن ماجه (٢٦٤٢).
(٣) أخرجه النسائى (٧/٤٥) كتاب المزارعة، باب النهى عن كراء الأرض (٣٩١٣).
(٤) ينظر: أدب الاختلاف عند علماء السلف، بحث على شبكة الإنترنت للشيخ خليل الميس.

للنبي ﷺ تحكمه جملة من القواعد والآداب تتمثل فيما يلي(١):

١- البعد عن الخلاف ما أمكن.

فلقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يحاولون ألا يختلفوا، بل كانوا يعالجون ما يقع من النوازل في ظلال هدي الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ومعالجة الأمر عادة لا تتيح فرصة كبيرة للجدل. عندهم فضلًا عن التنازع والشقاق.

أما إذا وقع الاختلاف - رغم محاولاتهم لتحاشيه - سارعوا في رد الأمر المختلف فيه إلى كتاب الله وإلى رسول الله ﷺ وسرعان ما يرتفع الخلاف.

٢- سرعة خضوعهم والتزامهم بحكم الله ورسوله وتسليمهم التام به، ولقد سبق بيان ذلك.

٣- تصويب رسول الله ﷺ للمختلفين في كثير من الأمور التي تحتمل التأويل، ولدى كل منهم شعور بأن ما ذهب إليه أخوه يحتمل الصواب كالذي يراه لنفسه، وهذا الشعور كفيل بالحفاظ على احترام كل من المختلفين لأخيه، والبعد عن التعصب للرأي.

٤- الالتزام بالتقوى وتجنب الهوى، وذلك من شأنه أن يجعل الحقيقة وحدها هدف المختلفين؛ حيث لا يهم أيًّا منهم أن تظهر الحقيقة على لسانه أو على لسان أخيه.

٥- التزامهم بأدب الإسلام من انتقاء أطيب الكلم وتجنب الألفاظ الجارحة بين المختلفين مع حسن استماع كل منهم للآخر.

٦- تنزههم عن المماراة ما أمكن، وبذلهم أقصى أنواع الجهود في موضوع البحث، مما يعطي لرأي كل من المختلفين صفة الجد والاحترام من الطرف الآخر ويدفع المخالف لقبوله أو محاولة تقديم الرأي الأفضل.

---

(١) ينظر في ذلك: أدب الحوار في الإسلام، مصباح منصور، مجلة كلية أصول الدين العدد (١٨-٢٠٠١م) (٢/ ٦٢٢) أدب الاختلاف في الإسلام، طه جابر فياض ص (٥٠).

الفصل الثالث

الحوار والجدال بين الصحابة بعد وفاة رسول الله ﷺ

ألمحنا آنفاً إلى أن الصحابة قد اختلفوا في أمور كثيرة في حياة النبي ﷺ، بيد أن النبي ﷺ كان المرجع بينهم فيما اختلفوا فيه، فإذا اشتجر الخلاف بينهم ردوا الأمر إليه، فلا يلبث الخلاف أن يرتفع ويزول، وكذلك كان ﷺ يصوب للمختلفين كثيراً من الأمور التي تحتمل التأويل.

وقد تجادل الصحابة كذلك بعد وفاة رسول الله ﷺ وتناقشوا في كثير من الأمور، سواء ما تعلق منها بالدين أم الدنيا، وكان لاختلافهم أسباب ولحوارهم آداب، وفي كثير من الأحوال كان الخلاف يرتفع ويزول بالحجة العقلية والدليل المنطقي والبرهان المقنع.

* وأول قضية اختلف فيها صحابة رسول الله ﷺ بعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى هي قضية الخلافة، التي دار الحوار بينهم فيها في سقيفة بني ساعدة.

روى الشيخان أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - خطب الناس مرجعه من الحج، فقال في خطبته: قد بلغني أن فلاناً منكم يقول: لو مات عمر بايعت فلاناً فلا يغترن امرؤ أن يقول: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة (وتمت)، ألا وإنها قد كانت كذلك، إلا أن الله وقى شرها، وليس فيكم اليوم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر، وإنه كان من خيرنا حين توفي رسول الله ﷺ وإن عليًا والزبير ومن معهما تخلفوا في بيت فاطمة، وتخلفت الأنصار عنها بأجمعها في سقيفة بني ساعدة، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت له: يا أبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار، فانطلقنا نؤمهم، حتى لقينا رجلان صالحان، فذكرا لنا الذي صنع القوم، فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ قلت: نريد إخواننا من الأنصار، فقالا: لا عليكم ألا تقربوهم واقضوا أمركم يا معشر المهاجرين، فقلت: والله لنأتينهم فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا هم مجتمعون، وإذا بين ظهرانيهم رجل

مزمل، فقلت: من هذا؟ قالوا: سعد بن عبادة: فقلت ما له ؟ قالوا: وجع، فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله، وقال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دفت دافة منكم تريدون أن تختزلونا من أصلنا وتغصبونا من الأمر[1]. فلما سكت أردت أن أتكلم، وقد كنت زورت[2] مقالة أعجبتني أردت أن أقولها بين يدي أبي بكر وقد كنت أداري منه بعض الحد وهو كان أحلم مني وأوفر، فقال أبو بكر: على رسلك فكرهت أن أغضبه، وكان أعلم مني، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بداهته (مثلها) وأفضل (منها) حتى سكت، فقال: أما بعد فما ذكرتم فيكم من خير فأنتم أهله، ولم تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين (فبايعوا) أيهما شئتم، فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح (وهو جالس بيننا) فلم أكره مما قال غيرها، وكان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من إثم أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، فقال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش، وكثر اللغط وارتفعت الأصوات، حتى خشيت الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار، أما والله ما وجدنا فيما حضرنا أمراً هو أوفق من مبايعة أبي بكر، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة، أن يحدثوا بعدنا بيعة، فإما أن نبايعهم على ما لا نرضى، وإما أن نخالفهم فيكون فيه فساد[3].

وعن ابن مسعود قال: لما قبض رسول الله ﷺ قالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير، فأتاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا معشر الأنصار،

---

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٣٨٨).
(٢) زورت مقالة: أعددتها في نفسي.
(٣) أخرجه البخاري (١٤/ ١٠٩ - ١١١) كتاب الحدود باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت (٦٨٣٠).

ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟ فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر[1].

وأخرج ابن سعد والحاكم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري: قال: قبض رسول الله ﷺ واجتمع الناس في دار سعد بن عبادة وفيهم أبو بكر وعمر، فقام خطباء الأنصار، فجعل الرجل منهم يقول: يا معشر المهاجرين إن رسول الله ﷺ كان إذا استعمل رجلًا منكم قرن معه رجلًا منا، فنرى أن يلي هذا الأمر رجلان منا ومنكم، فتتابعت خطباء الأنصار على ذلك، فقام زيد بن ثابت فقال: أتعلمون أن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين وخليفته من المهاجرين، ونحن كنا أنصار رسول الله ﷺ، فنحن أنصار خليفته كما كنا أنصاره، ثم أخذ بيد أبي بكر فقال: هذا صاحبكم، فبايعه عمر، ثم بايعه المهاجرون والأنصار، وصعد أبو بكر المنبر، فنظر في وجوه القوم، فلم ير الزبير، فدعا بالزبير فجاء، فقال: قلت ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين، فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فقام فبايعه، ثم نظر في وجوه القوم فلم يرى عليًا فدعا به فجاء، فقال: قلت ابن عم رسول الله ﷺ وختنه على ابنته أردت أن تشق عصا المسلمين، فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فبايعه.

وهكذا حسم الخلاف بين الصحابة سريعاً في مسألة الخلافة، فرضى المسلمون لدنياهم أبا بكر، كما رضيه لدينهم رسول الله ﷺ. والملحوظ في هذا الخلاف بين الصحابة أنهم لجئوا إلى الحوار وتداولوا الرأي فيما بينهم، كل يدلي برأيه ويقدم حجته في صدق وصراحة ووضوح. ولعل صدقهم وإخلاصهم للإسلام والمسلمين هو الذي حسم الخلاف سريعاً، وأسفر الحوار والجدال عن اقتناع تام بأهلية أبي بكر ليكون خليفة رسول الله ﷺ.

* وفي مقدمة المسائل الخلافية في زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه مسألة (مانعي الزكاة) حيث اشتجر الخلاف بين الصحابة في أمر هذه الطائفة من المرتدين الذين أبوا إيتاء الزكاة بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فأبو

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٦/٥) وعزاه لأحمد وأبو يعلى وقال: وفيه عاصم بن أبي النجود وهو ثقة وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح.

بكر ونفر من الصحابة يرون قتال هؤلاء وردهم إلى الجادة، وعمر وفريق آخر من الصحابة يرون عكس ذلك، فتداول أولئك وهؤلاء الرأي فيما بينهم، وتمكن أبو بكر الصديق من إقناع الفريق الآخر الذي يرى عدم قتال هؤلاء بصواب اجتهاده في وجوب قتال مانعي الزكاة، واعتبارهم مرتدين ما لم يتوبوا ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وبذلك ارتفع الخلاف في هذه المسألة الشائكة، وانعقد إجماع المسلمين على قتال مانعي الزكاة، كما اتفقت كلمتهم على قتال المرتدين ردة كاملة، وبذلك حفظ الإسلام من محاولات العبث، والإتيان عليه ركناً بعد ركن.

قال الذهبي: «لما اشتهرت وفاة النبي ﷺ بالنواحي ارتدت طوائف كثيرة من العرب عن الإسلام، ومنعوا الزكاة، فنهض أبو بكر الصديق لقتالهم، فأشار عليه عمر وغيره أن يفتر عن قتالهم، فقال: والله لو منعوني عقالًا أو عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، فقال عمر: «كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فمن قالها عصم ماله ودمه إلا بحقها، وحسابه على الله» فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، وقد قال: «إلا بحقها» قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق. أخرجه الشيخان وغيرهما»(1).

وعن عروة قال: خرج أبو بكر في المهاجرين والأنصار حتى بلغ نقعاً حذاء نجد، وهربت الأعراب بذراريهم، فكلم الناس أبا بكر، وقالوا: ارجع إلى المدينة وإلى الذرية والنساء، وأمّر رجلًا على الجيش، ولم يزالوا به حتى رجع، وأمر خالد بن الوليد، وقال له: إذا أسلموا وأعطوا الصدقة، فمن شاء منكم أن يرجع فليرجع، ورجع أبو بكر إلى المدينة.

---

(1) أخرجه البخاري (١٥/ ١٧٥) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٧٢٨٤)، ومسلم (١/ ٥١) كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله (٣٢/ ٢٠).

وأخرج الدارقطني عن ابن عمر قال: لما برز أبو بكر واستوى على راحلته، أخذ علي بن أبي طالب بزمامها، وقال: إلى أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك ما قال لك رسول الله ﷺ يوم أحد: شم سيفك، ولا تفجعنا بنفسك، وارجع إلى المدينة، فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبداً[1].

وعن حنظلة بن علي الليثي أن أبا بكر بعث خالداً وأمره أن يقاتل الناس على خمس، من ترك واحدة منهم قاتله كما يقاتل من ترك الخمس جميعاً: على شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وسار خالد ومن معه في جمادي الآخرة، فقاتل بني أسد وغطفان، وقتل من قتل وأسر من أسر، ورجع الباقون إلى الإسلام، واستشهد بهذه الواقعة من الصحابة عكاشة بن محصن، وثابت ابن أقرم.

وفي الحق أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قد لعب دوراً بارزاً في حسم كثير من المسائل الخلافية التي ظهرت بعد وفاة رسول الله ﷺ، وما ذاك إلا لرجاحة عقله وغزارة ما حصله من علم غزير من النبي ﷺ رشحه لأن يكون من الصحابة المجتهدين.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما توفي رسول الله ﷺ اشرأب النفاق وارتدت العرب، وانحازت الأنصار، فلو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبي لهاضها[2]، فما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي بغنائها وفصلها، قالوا: أين يدفن النبي ﷺ؟ فما وجدنا عند أحد من ذلك علماً، فقال أبو بكر: سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول: «ما من نبي يقبض إلا دفن تحت

---

(١) ذكره الهندى فى كنز العمال (١٤١٥٨) وعزاه للدارقطنى فى غرائب مالك والخلعى فى الخلعيات وقال-: فيه أبو غزية محمد بن يحيى الزهرى متروك.
(٢) الهيض: كسر العظم.

مضجعه الذي مات فيه[1]، قالت: واختلفوا في ميراثه، فما وجدوا عند أحد من ذلك علماً، فقال أبو بكر: سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول: «إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»[2].

قال بعض العلماء: وهذا أول اختلاف وقع بين الصحابة رضي الله عنهم، فقال بعضهم: ندفنه بمكة بلده الذي ولد بها، وقال آخرون: بل بمسجده، وقال آخرون: بل بالبقيع، وقال آخرون: بل في بيت المقدس مدفن الأنبياء، حتى أخبرهم أبو بكر بما عنده من العلم.

قال ابن زنجويه: وهذه سنة تفرد بها الصديق من بين المهاجرين والأنصار ورجعوا إليه فيها[3].

ومن المسائل التي كانت موضع حوار وجدال بين صحابة رسول الله ﷺ: مسألة جمع القرآن الكريم، لا سيما بعد مقتل عدد كبير من القراء في حروب الردة، فتسرب القلق إلى نفوس نفر من الصحابة أن يذهب كثير من القرآن. فراجع عمر بن الخطاب الخليفة أبا بكر الصديق - رضي الله عنهما - في أمر جمع القرآن، وما زال به حتى اقتنع برأيه.

أخرج البخاري عن زيد بن ثابت قال: أرسل إليَّ أبو بكر مَقْتَلَ أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وإني لأخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن يجمعوه، وإني لأرى أن يجمع القرآن، قال أبو بكر: فقلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري، فرأيت الذي رأى عمر، قال زيد: وعمر عنده جالس لا يتكلم، فقال أبو بكر: إنك شاب عاقل، ولا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، لو

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٥٦٠٠) وعزاه إلى أبي القاسم البغوي وأبي بكر في الغيلانات، وابن عساكر في تاريخه.
(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٢٧).
(٣) ينظر: تاريخ الخلفاء ص (٨٦).

كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، فقلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي ﷺ؟ فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع، والأكتاف، والعسب، وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت، لم أجدهما مع غيره ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخرها.

فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر، حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما(١).

وأخرج أبو يعلي عن علي، قال: أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر؛ إن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين(٢).

واختلف الصحابة كذلك في كثير من المسائل الفقهية، وتحاوروا فيها، وتجادلوا حولها، ومن المسائل الفقهية ذائعة الصيت التي اختلفوا فيها: قسمة الأراضي المفتوحة.. فكان أبو بكر يرى قسمتها، وكان عمر يرى وقفها ولم يقسمها، وكذلك كان اختلاف الشيخين في المفاضلة في العطاء، فكان أبو بكر يرى التسوية في الأعطيات.. بينما كان عمر يرى المفاضلة، حيث لم يسو في العطاء بين من قاتل النبي ﷺ قبل الإسلام، وبين من لم يقاتله قط.

ومن المسائل الخلافية: المرأة المغيبة (التى غاب عنها زوجها) وكان يُدْخَل عليها.. فأرسل عمر، فلما بلغها الخبر أملصت، أي: سقط ولدها حيًا فمات.. فاستشار عمر الصحابة في شأنها.. فقال بعضهم: ليس عليك شيء إنما أنت وال مؤدب.. وفي القوم علي فأقبل عليه عمر فسأله: فقال: إنك أنت أفزعتها، وألقت ولدها بسببك، فأمر عمر أن يقسم ديتها على العاقلة. وهكذا نزل عمر على رأي علي رضي الله عنهما، ولم يجد غضاضة من العمل باجتهاده وهو أمير المؤمنين

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٢٤٤) كتاب التفسير باب قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٤٦٧٩).

(٢) ذكره الهندى فى كنز العمال (٤٧٥٣) وعزاه لابن سعد فى الطبقات وأبى يعلى وأبى نعيم فى المعرفة وخيثمة فى فضائل الصحابة فى المصاحف وابن المبارك معًا بسند حسن.

ومن المسائل التي اختلف فيها الصحابة كذلك: مسألة إنفاذ بعث أسامة الذي كان قد وجهه رسول الله ﷺ قبل وفاته إلى بلاد الشام لقتال الروم، وكانت هذه المسألة محل جدال بين أبي بكر الخليفة الذي رأي التزام أمر رسول الله ﷺ وإرسال الجيش، وبين بعض الصحابة الذين رأوا أن يبقى جيش أسامة في المدينة، ريثما يقضي المسلمون على فتنة المرتدين.

فأصر أبو بكر على رأيه وأقنع من خالفوه الرأي بأهمية إنفاذ الجيش وتنفيذ أمر رسول الله ﷺ.

وأخرج البيهقي وابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: والذي لا إله إلا هو لولا أن أبا بكر اسْتُخلِف ما عُبِدَ الله، ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة. فقيل له: مه يا أبا هريرة، فقال: إن رسول الله عليه الصلاة والسلام وجه أسامة بن زيد في سبعمائة إلى الشام، فلما نزل بذي خشب قبض النبي ﷺ وارتدت العرب حول المدينة، واجتمع إليه أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: رد هؤلاء، توجه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة؟ فقال: والذي لا إله إلا هو لو جرت الكلاب بأرجل أزواج النبي ﷺ ما رددت جيشاً وجهه رسول الله ﷺ ولا حللت لواء عقده، فوجه أسامة، فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم، فلقوهم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين، فثبتوا على الإسلام.

وأخرج عن عروة قال: جعل رسول الله ﷺ يقول في مرضه: أنفذوا جيش أسامة، فسار حتى بلغ الجرف، فأرسلت إليه امرأته فاطمة بنت قيس تقول: لا تعجل، فإن رسول الله ﷺ ثقل، فلم يبرح حتى قبض رسول الله ﷺ، فلما قبض رجع إلى أبي بكر، فقال: إن رسول الله ﷺ بعثني وأنا على غير حالكم هذه، وأنا أتخوف أن تكفر العرب، وإن كفرت كانوا أول من يقاتل، وإن لم تكفر مضيت، فإن معي سروات الناس وخيارهم، فخطب أبو بكر الناس، ثم قال: والله لأن تخطفني الطير أحب إلي من أن أبدأ بشيء قبل أمر رسول الله

ﷺ فبعثه[1].

وكان الخليفة عمر بن الخطاب يستشير كبار الصحابة في كثير من الأمور المتصلة بإدارة الدولة أو في أحكام الدين والفقه، وكان الأمر يتسع لكثير من الحوار والجدال والمناقشة، وقد أثر عن عمر بن الخطاب في ذلك قوله: «لولا علي لهلك عمر».

ومن الأمثلة الدالة على ذلك: أن تدوين الدواوين في عهد عمر بن الخطاب كان ثمرة للحوار بينه وبين كبار الصحابة، ومنهم علي بن أبي طالب وعثمان ابن عفان رضي الله عنهم.

فعن جبير بن الحويرث: أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - استشار المسلمين في تدوين الديوان، فقال له علي: تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال، ولا تمسك منه شيئاً، وقال عثمان: أرى مالًا كثيراً يسع الناس، وإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن يلتبس الأمر، فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة: يا أمير المؤمنين، قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً، وجندوا جنوداً، فدون ديواناً وجند جنوداً، فأخذ بقوله، فدعا عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم- وكانوا من نساب قريش - فقال: اكتبوا الناس على منازلهم، فكتبوا فبدءوا ببني هاشم، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه، ثم عمر وقومه على الخلافة، فلما نظر فيه عمر قال: ابدءوا بقرابة النبي ﷺ الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله.

وعن سعيد بن المسيب قال: دون عمر الديوان في المحرم سنة عشرين.

وعن الحسن قال: كتب عمر إلى حذيفة: أن أعط الناس أعطيتهم وأرزاقهم، فكتب إليه: إنا قد فعلنا وبقي شيء كثير، فكتب إليه عمر: إنه فيئهم الذي أفاء الله عليهم، ليس هو لعمر ولا لآل عمر، اقسمه بينهم[2].

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٩١) بنحوه.
(٢) ينظر: تاريخ الخلفاء (١٦٧، ١٦٨).

ولقد حفظت لنا كتب السير والفقه والتاريخ كثيراً مما كان يدور بين الصحابة من اختلافات ومجادلات ومحاورات. وفي الحق أن الباعث الرئيسي على الخلاف بين الصحابة إنما هو تحري الحق، وإن كانوا في جملتهم يتجنبون الخلاف ما وسعهم ذلك إلا أن يكون له مسوغ قوي، كأن تصل إلى أحدهم سنة لم تصل إلى سواه وكاختلافهم في فهم النص وتأويله، بيد أنهم كانوا سرعان ما يستجيبون للحق، ويعترفون بالخطأ دونما حرج أو أنفة.

وكان الصحابة في حواراتهم ومجادلاتهم يتقيدون بالقواعد والآداب الآتية:

١- كانت أخوة الإسلام بينهم أصلًا من أصول الإسلام الهادفة التي لا قيام للإسلام بدونها، وهي فوق الخلاف أو الوفاق في المسائل الاجتهادية.

٢- حينما كان ينشب بينهم خلاف في مسألة ما كانوا يسارعون للاستجابة للحق والاعتراف بالخطأ دون شعور بالغضاضة، كما كانوا شديدي الاحترام لأهل العلم والفضل والفقه منهم.. لا يجاوز أحد منهم قدر نفسه، ولا يهمل حق أخيه.

٣- خلافاتهم كانت لا تتجاوز مسائل الفروع، أما المسائل الاعتقادية فلم تك موضع خلاف عندهم.

٤- كان للقراء وفقهاء الصحابة مكانتهم المعروفة التي لا ينازعهم فيها منازع؛ لذا فإنهم كانوا بارزين ظاهرين كالقيادات السياسية.

٥- كانت نظرتهم إلى استداركات بعضهم على بعض أنها معونة يقدمها المستدرك منهم لأخيه، وليست عيباً أو نقداً[١].

---

(١) ينظر: أدب الحوار في الإسلام، مصباح منصور، (٦٢٣،٦٢٤).

نموذجان للمناظرة في الإسلام:

ألمحنا آنفاً إلى أن المناظرة ضرب من الحوار وشكل من أشكاله، وهي فن من فنون القول، ولون من ألوان إقامة الأدلة وسوق الحجة، يصطنعها الدعاة لمناقشة أعداء الإسلام وخصومه من الملحدين عقائديًا والمنحرفين فكريًا.

وللمناظرة في الإسلام قواعد يجب التقيد بها وآداب ينبغي الالتزام بها، منها[1]:

١- وجوب الفهم العميق للقضية- محل المناقشة- والالتزام بالتريث والأناة وعدم الاستعجال.

٢- أن يتكلم المناظر في كل مقام بما يناسبه، فالقضايا الدينية تختلف عن المسائل الاجتماعية والاقتصادية.

٣- ألا يختصر الكلام اختصاراً يخل بالفهم، وألا يطيل إطالة تؤدي إلى الملل؛ لأن ذلك يذهب بالغرض من المناظرة.

٤- ألا يضحك ولا يرفع صوته فوق العادة، ولا يتكلم بكلام السفهاء؛ لأن ذلك من وظائف الجهال عند المناظرة يسترون بها جهلهم.

٥- أن يجلس جلسة المكترث، وأن يتجنب المناظرة في الأوقات التي يكون فيها خارجا عن حد الاعتدال كالجوع والعطش وامتلاء المعدة والمدافعة والغضب والفرح البالغ مبلغ التأثير.

وقد حفل تاريخ الإسلام بكثير من المناظرات التي وقعت بين علماء الإسلام وأصحاب الديانات الأخرى، وبين الفرق الإسلامية وأرباب المذاهب العقدية كأهل السنة والمعتزلة والشيعة والخوارج وكذلك ثمة مناظرات في الفقه الإسلامي بين أئمة المذاهب الفقهية تخبرنا بمدى رحابة الفكر الإسلامي

---

(١) ينظر: أدب البحث والمناظرة، أحمد مكي، ص (١٧٢، ١٧٣).

وتراثه، وفيما يلي نسوق نموذجين لهذه المناظرات، أحدهما: مناظرة بين ابن عباس رضي الله عنهما والخوارج، والآخر: مناظرة بين عالم مسلم وحبر يهودي:

أولاً: مناظرة ابن عباس للخوارج:

الخوارج هم الذين خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب بعد التحكيم بينه وبين معاوية، ولقد غالوا في آرائهم وجنحوا إلى تكفير معظم صحابة رسول الله ﷺ، ولقد استباحوا دماء المسلمين وأعراضهم حتى إنهم كانوا لا يتعرضون لأهل الكتاب والمشركين تعرضهم للمسلمين، ولقد ناظرهم عبد الله بن عباس - رضي الله عنه - وروى بنفسه لنا وقائع تلك المناظرة.

فقال: «قال علي لا تقاتلوهم: أي الخوارج: حتى يخرجوا فإنهم سيخرجون، قال: أي ابن عباس - قلت: يا أمير المؤمنين: أبرد بالصلاة، فإني أريد أن أدخل عليهم فأسمع من كلامهم وأكلمهم، فقال: أخشى عليك منهم، قال ابن عباس: وكنت رجلًا حسن الخلق لا أوذي أحداً، قال: فلبست أحسن ما يكون من الثياب اليمنية وترجلت، ثم دخلت عليهم وهم قائلون: فقالوا لي: ما هذا اللباس؟ فتلوت عليهم القرآن: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾.

وقلت: ولقد رأيت رسول الله ﷺ يلبس أحسن ما يكون من الثياب اليمنية، فقالوا: لا بأس، فما جاء بك؟ فقلت: أتيتكم من عند صاحبي وهو ابن عم رسول الله ﷺ وصاحبه، وأصحاب رسول الله ﷺ أعلم بالوحي منكم، وفيهم نزل القرآن أبلغكم عنهم وأبلغهم عنكم، فما الذي نقمتم؟ فقال بعضهم ناهيًا: إياكم والكلام معه، إن قريشاً قوم خصمون، قال الله عز وجل: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

وقال بعضهم: كلموه، فانتحى لي منهم رجلان أو ثلاثة، فقالوا: إن شئت

تكلمت وإن شئت تكلمنا، فقال: بل تكلموا، فقالوا: ثلاث نقمناهن عليه: جعل الحكم إلى الرجال، وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فقلت: قد جعل الله الحكم من أمره إلى الرجال في ربع درهم في الأرنب وفي المرأة وزوجها.

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، وقوله: ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

فالحكم في رجل وامرأته أفضل؟ أم الحكم في الأمة يرجع بها ويحقن دماؤها ويلم شعثها؟ قالوا: نعم، قالوا: وأخرى محا نفسه أن يكون أمير المؤمنين، فأمير الكافرين هو؟ يقصدون بكلامهم هذا على ابن أبي طالب رضي الله عنه.

يقول ابن عباس: فقلت لهم: أرأيتم إن قرأت من كتاب الله عليكم وجئتكم به من سنة رسول الله ﷺ أترجعون؟

قالوا: نعم، قلت: قد سمعته أو أراه قد بلغكم أنه لما كان يوم الحديبية جاء سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ، فقال النبي لعلي: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ، فقالوا: لو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك، فقال رسول الله ﷺ: امح يا علي. أفخرجت من هذه؟

قالوا: أي الخوارج: نعم.

قال ابن عباس: وأما قولكم: قتل ولم يسب ولم يغنم في معركة الجمل وصفين. أفتسبون أمكم- أي عائشة- وتستحلون منها ما تستحلون من غيرها؟ فإن قلتم: نعم، فقد كفرتم بكتاب الله، وخرجتم من الإسلام فأنتم بين ضلالتين. يقول ابن عباس: وكلما جئتهم بشيء من ذلك أقول: أفخرجت منها؟ فيقولون: نعم، قال: فرجع منهم ألفان وبقي ستة آلاف[1].

وهكذا.. فقد رأينا من خلال هذه المناظرة أن عبد الله بن عباس رضي الله

(١) أخرجه ابن عبد البر (٢/ ١٨٣٤) في جامع بيان العلم وفضله وأصله في سنن أبو داود (٢/ ٤٤٣) كتاب اللباس، باب لباس الغليظ (٤٠٣٧).

عنه قد استطاع بما أوتي من فهم عميق، وبصيرة مستنيرة، وحسن مناظرة أن يقنع ألفين من الخوارج بالعودة إلى حظيرة الإسلام، والكشف عن الخروج على الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه؛ وذلك لأنه التزم بآداب المناظرة وقواعدها الإسلامية ليعلمنا أدب الحوار في الإسلام[١].

ثانيا: المناظرة بين عالم مسلم وحبر يهودي:

أورد ابن قيم الجوزية في كتابه: «هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى» مناظرة جرت بين أحد علماء المسلمين وبعض اليهود ببلاد المغرب على النحو الآتي[٢]:

قال المسلم لليهودي: في التوراة التي بأيديكم إلى اليوم: أن الله قال لموسى: إنني أقيم لبني إسرائيل من إخوتهم نبيًا مثلك، أجعل كلامي على فيه، فمن عصاه انتقمت منه.

قال له اليهودي: ذلك يوشع بن نون.

فقال المسلم: هذا محال من وجوه، أحدها: أنه قال عندك في آخر التوراة: أنه لا يقوم في بني إسرائيل نبي مثل موسى.

ثانيها: أنه قال: «من إخوتهم» وإخوة بني إسرائيل إما العرب وإما الروم، فإن العرب بنو إسماعيل والروم بنو العيص، وهؤلاء إخوة بني إسرائيل، فأما الروم فلم يقم منهم نبي سوى أيوب، وكان قبل موسى فلا يجوز أن يكون هو الذي بشرت به التوراة، فلم يبق إلا العرب، وهم بنو إسماعيل، وهم إخوة بني إسرائيل، وقد قال الله في التوراة حين ذكر إسماعيل جد العرب: «إنه يضع فسطاطه في وسط بلاد إخوته»، وهم بنو إسرائيل، وهذه بشارة ابنه محمد الذي نصب فسطاطه وملك أمته في وسط بلاد بني إسرائيل وهي الشام

---

(١) ينظر: هداية الحيارى، لابن القيم ص (١٧٤).
(٢) أدب الحوار في الإسلام، مصباح منصور (٦٣٢-٦٣٥).

التي هي مظهر ملكه.

فقال اليهودي: فعندكم في القرآن: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، والعرب تقول: «يا أخا بني تميم للواحد منهم» فهكذا قوله: أقيم لبني إسرائيل من إخوتهم.

قال المسلم: الفرق بين الموضوعين ظاهر، فإنه من المحال أن يقال: إن بني إسرائيل إخوة بني إسرائيل، وبني تميم إخوة بني تميم، وبني هاشم إخوة بني هاشم... هذا ما لا يعقل في لغة أمة من الأمم، فخلاف قولك: هود أخو عاد، وصالح أخو ثمود أي: واحداً منهم، فهو أخوهم في النسب، فاعتبار أحد الموضعين بالآخر خطأ صريح.

قال اليهودي: قد أخبر الله في التوراة: أنه سيقيم هذا النبي لبني إسرائيل، ومحمد إنما أقيم للعرب. ولم يقم لبني إسرائيل، فهذا الاختصاص يشعر بأنه مبعوث إليهم لا إلى غيرهم.

فقال المسلم: هذا من دلائل صدقه: فإنه ادعى أنه رسول الله إلى أهل الأرض كتابيهم وأميهم، ونص الله في التوراة على أنه يقيم لهم لئلا يظنوا أنه مرسل إلى العرب والأميين خاصة.

فكان في تعيين بني إسرائيل بالذكر إزالة لوهم من توهم أنه مبعوث إلى العرب خاصة، قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [القصص: ٤٦].

واستمرت المناظرة على هذا المنوال، اليهودي يسأل والمسلم يجيب بفطنة وذكاء، ولما لم يجد اليهودي سبيلًا إلى الخلاص من المسلم الواعي التفت إلى يهودي معه، ثم قال: نحن قد جرى شأننا على اليهودية، وتالله ما أدري كيف التخلص من هذا العربي؛ إلا أنه أقل ما يجب علينا أن نأخذ به أنفسنا النهي عن ذكره بسوء.

فهذه المناظرة حسمت أمرين من أمارات نبوة الرسول ﷺ، وهما: ختم النبوة والرسالة به عليه الصلاة والسلام، وإثبات عموم الدعوة الإسلامية.

وقد نتج عن ذلك إفحام اليهودي والتزامه الحجة.

فالمناظرة: ضرب من ضروب الحوار قد تدور بين فرد وفرد كما رأينا، وقد تكون بين جماعتين، كل جماعة بها عدد من العلماء يتناول كل عالم جزءاً من المناظرة يعد له إعداداً جيداً، ومن أشهر تلك المناظرات: المناظرة الإسلامية المسيحية التي تمت في السودان منذ بضع سنوات بين بعض علماء الإسلام وعدد من القسس، واستمرت لعدة أيام وانتهت باعتناق القسيس للإسلام، وقد سجلت المناظرة على أشرطة ووزعت على العالم الإسلامي، واستطاع علماء الإسلام بفضل من الله وتوفيقه تفنيد حجج القساوسة وإزالة ما علق في أذهانهم من شبهات وأباطيل عن الإسلام.

كما لا يخفى علينا جهود الشيخ الداعية أحمد ديدات في نشر الإسلام من خلال مناظراته العديدة مع القسيسين وغيرهم، والتي تتسم بالحوار الهادئ والحجة الواضحة، مما نتج عن تلك المناظرات إسلام العديد من أصحاب الديانات الأخرى على يد هذا الداعية الذي سطع نجمه في العالم عامة وفي إفريقيا خاصة، وغيره وغيره من الدعاة المخلصين الذين لهم السبق الأول في هذا الشأن كالشيخ الداعية محمد الغزالي رحمه الله[١].

* * *

(١) ينظر: أدب الحوار في الإسلام، مصباح منصور، (٢/ ٦٣٢-٦٣٧).

الفصل الرابع

الاختلاف في عصر التابعين ومن بعدهم من أئمة المذاهب الفقهية وأدب الحوار بينهم فيما اختلفوا فيه

إن الاختلاف - كما بينا في تمهيد هذا الكتاب - سنة من السنن التي اقتضتها حكمة الله عز وجل، وإن دائرة الاختلاف تتسع لتشمل كل شيء، سواء أكان كونيًا أم بشريًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر].

وليس الاختلاف المشار إليه في الآية تناقضًا وتضادًا، وإنما هو اختلاف تنوع وتكامل.

وهذا الاختلاف حاصل موجود في الحياة بعمومها، وفي طبيعة البشر بشكل خاص، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

وقال عز من قائل: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يونس: ١٩].

وإن هذا الاختلاف المشار إليه أمر طبيعي، نظراً لوجود الفروق الفردية بين الناس في القدرات الجسمية والمدارك العقلية، فيختلف الحكم على الأمر الواحد بين الناس، فما قد يراه المرء مصلحة لنفسه، يراه غيره ضرراً وفساداً؛ ولذا كان التشريع المنزل من عند الله هو الذي يحقق الخير للبشرية، ويعصمها من شرور الاختلاف وتضارب الآراء.

ولا يقتصر الاختلاف عند هذا الحد المذكور بل يوجد أيضاً ما يدل على

الاختلاف بين الناس، فمنهم من يميل إلى التيسير، ومنهم من يشدد، ومنهم من يسأل عن الخير؛ رغبة في عمله ونيل ثوابه، ومنهم من يسأل عن الشر؛ مخافة إدراكه، وليبعد نفسه عنه.

وهذا الاختلاف في صفات البشر وقدراتهم الفكرية والعقلية يترتب عليه الاختلاف في الحكم على الأشياء إيجابيًا أو سلبيًا، وهو المشاهد في كل مجالات الحياة منذ ظهور الإسلام.

على أنه ينبغي التأكيد في هذا السياق على أمر بالغ الأهمية وهو أن الاختلاف الحاصل بين الصحابة والتابعين ومن بعدهم كان في فروع الدين لا في أصوله، فلا اختلاف بين المسلمين في وحدانية الله وشهادة أن محمداً رسول الله، ولا في أن القرآن معجزة الإسلام ومعجزة رسوله ﷺ وصل إلينا بطريق التواتر جيلًا بعد جيل، ولا في أصول الفرائض.

يقول الإمام العلامة محمد أبو زهرة: «لم يكن الاختلاف الواقع بين الصحابة والتابعين متناولًا لب الدين، فلم يكن في وحدانية الله تعالى، وشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ وأنه معجزة النبي ﷺ الكبرى، ولا في أنه يروى بطريق متواتر نقلته الأجيال الإسلامية كلها جيلًا بعد جيل، ولا في أصول الفرائض كالصلوات الخمس والزكاة والحج والصوم، ولا في طريق أداء هذه التكليفات، وبعبارة عامة لم يكن خلافاً في ركن من أركان الإسلام ولا في أمر من الدين بالضرورة، كتحريم الخمر والخنزير وأكل الميتة، والقواعد العامة للميراث، وإنما الاختلاف في أمور لا تمس الأركان ولا الأصول العامة»[(١)].

ويقودنا ذلك إلى أمر آخر على جانب كبير من الأهمية والخطورة، وهو ما الذي يجوز الاختلاف فيه وإقامة الجدال والحوار بشأنه وما الذي لا يجوز

---

(١) ينظر: تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي ص (١١).

الاختلاف فيه؟ ويستمد هذا السؤال أهميته من افتراق الناس بشأن قضية الاختلاف إلى طرفين ووسط:

أما الطرف الأول فيرى أن كل اختلاف- في أي مسألة- هو اختلاف سائغ، بل هو اختلاف محمود غير مذموم، وأما الطرف الآخر فيرى أنه لا يسوغ الاختلاف في أية مسألة، وأن من خالف في مسألة يسيرة كمن خالف في مسألة عظيمة جليلة.

وقد ورث كلا الفريقين سموماً وجراثيم أضحت الأمة بسببها تعاني سكرات الموت إلا من رحم الله، فالفريق الذي يتساهل في كل الاختلافات، ويرى أن الصدر رحب لكل اختلاف عقديًا كان أو فقهيًا قد خلف لنا حثالة من الناس تدعو إلى وحدة الأديان، والتقارب بين الأفكار الإسلامية والأفكار الهدامة الأخرى، ليخرجوا لنا جيلًا ليس له قيم إلا ما يفكر فيه من شهوات وملذات، وإن الدعوة إلى نظرية الخلط والتقارب بين الأديان هي أكبر مكيدة عرفت لمواجهة الإسلام والمسلمين، اجتمعت عليها كلمة اليهود والنصارى بجامع علتهم المشتركة (بغض الإسلام والمسلمين)، وغلفوها بأطباق من الشعارات اللامعة، وهي كاذبة خادعة ذات مصير مروع مخوف.

أما الفريق الذي يرى أنه لا يقبل أي اختلاف، وأن الاختلاف في الأمور اليسيرة كالاختلاف في الأمور العظيمة الجسيمة، فقد خلف لنا طائفة تنادي بتكفير كل مذنب وعاص، وتنتهك حرمة كل مؤمن ومسلم، ولا شك أن تلك الأفكار تصادم أسس الدين، وتعارض الفطرة المستقيمة السوية. والعدل والإنصاف أن نعلم أن مسائل العلم والدين متنوعة، فمنها ما لا يجوز الاختلاف فيها، ومنها ما يجوز لكن ترك الاختلاف أولى، ومنها ما يجوز الاختلاف فيها لتكافؤ الأدلة، وإن عد المسائل التي يجوز الاختلاف فيها أو التي لا يجوز أمر غير ممكن، بل إن مجالات الاختلاف أكثر من أن تحصى أفرادها، ولكن يمكن إجمالها في ثلاثة جوانب:

أولًا: الاختلاف في الأديان، ومنه الاختلاف بين الإسلام وغيره من الأديان كاليهودية والنصرانية والإباحية وغيرها.

ثانياً: الاختلاف في أمور العقائد، ومنه اختلاف فرق الضلالة مع أهل السنة والجماعة، أو اختلاف أهل السنة والجماعة أنفسهم في مسائل فرعية في العقيدة، ولكل حكمه.

ثالثاً: الاختلاف في الفروع الفقهية، ومنه اختلاف المذاهب الفقهية الأربعة[١].

وتأسيساً على ما سبق فإن المسائل الشرعية تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: مسائل لا يسوغ الخلاف فيها لأنها مسائل إجماع، والإجماع حجة قاطعة تحسم الخلاف، وفي ضوء ذلك نستطيع أن نفهم الحديث الذي رواه أبو هريرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمر وجهه، حتى كأنما فقئ في وجنتيه الرمان، فقال: «أبهذا أمرتم؟! أم بهذا أرسلت فيكم؟! إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه»[٢].

القسم الثاني: وهو ما يسوغ في مسائله الخلاف، إذا وجدت أسبابه الشرعية التي ذكرها العلماء، ولهذا الخلاف آدابه وضوابطه الشرعية كي لا يترتب عليه محذور.

وبناءً على ذلك فمن الممكن أن يختلف عالمان في فعل حصل من النبي ﷺ ولم يشهده إلا عدد قليل، أو قول صدر منه ﷺ مرة واحدة، وحضره عدد كثير، منهم من هو قوي السمع والحفظ، ومنهم ضعيفهما، أو ضعيف أحدهما، أو في عمل فعله ﷺ في الليل والناس نيام، لم ينتبه له إلا القليل،

---

(١) ينظر: الاختلاف ضوابطه وآدابه، عبدالرحمن آل أبو موسى، الإنترنت.
(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ١١) أبواب القدر، باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر (٢١٣٣).

أو في عمل من خواصه ﷺ، شأنه ألا يطلع عليه كثير، كقيام الليل الذي كان فرضا عليه ﷺ دون أمته، إلى أمثال ذلك وهو كثير[(١)].

ومما سبق يتبين أن «أصول الدين وأركانه وأسسه مسائل متفق عليها بين جميع الأمة في الجملة لا اختلاف بين علمائها في ذلك، وقد جاء بها الإسلام بنصوص قطعية واضحة لا مجال للخلاف فيها، فأركان الإيمان وأركان الإسلام وأمهات الفضائل، كل هذه أمور لم يختلف فيها، وكذلك أمهات الرذائل المقبوحة، فلم يخالف مسلم في أن الله خالق الخلق، وأنه أرسل رسله للناس، وأنه أوجب على الناس اتباعهم، والسير على هديهم».

أسباب الاختلاف بين العلماء:

مما لا شك فيه أن الوقوف على أسباب الاختلاف بين العلماء أمر مهم؛ لأنه يساعد على تقريب الهوة بين علماء المسلمين، فإذا كان الاختلاف ذا أسباب موضوعية قبلناه وعددناه عاملًا من عوامل الثراء الفكري والسعة على الناس، وما كان غير ذلك رفضناه وحاولنا القضاء عليه.

وينبغي أن نعلم أولًا أن الخلافات التي ورثناها نجد أن بعضها أملاه الترف العقلي وأن بعضها لفظي لا حاصل له ولا طائل من ورائه، كما فيها ما أذكى ناره الاستبداد السياسي واستبقاه عمداً إلى يومنا هذا، ومع ذلك فإن الخلاف الفقهي في الفروع كان وسيكون وسيبقى إلى آخر الدهر لأسباب طبيعية مقبولة، ويجب ألا نتطير منه وألا نحاول قتله[(٢)].

وقد نشأ علم الخلاف مع نشوء علم الفقه علماً مستقلًّا، وظهور نفر من العلماء المتخصصين فيه، برعوا واجتهدوا وأصبحوا للناس أئمة وقدوة، وقد

(١) ينظر: ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين، عبد الجليل عيسى، دار البيان الكويت ط. الأولى.
(٢) ينظر: محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية، ص (٥٦-٥٧).

نضج هذا العلم وتبلور على أيدي مقلدي الأئمة والفقهاء وتابعيهم، كل ينتصر لإمامه، ويحاول إظهار قوة حجته وصواب استدلاله فيما خالفه فيه غيره أو تفرد هو فيه.

ولقد عرف حاجي خليفة علم الخلاف بقوله: هو علم يعرف به كيفية إيراد الحجج الشرعية، ودفع الشبهة وقوادح الأدلة الخلافية بإيراد البراهين القطعية.

وفي الحق أن علم الخلاف وليد علوم عدة هي علم المنطق، وعلم الجدل، وعلم الفقه، فهو يأخذ من علم المنطق مبادئه وقواعده وكلياته وقطعياته، ثم ينطلق بها ليستخدمها في المسائل الفقهية، وبيان قواعد الأئمة وأصول اجتهاداتهم، ودفع الشكوك والشبه التي ترد على مذاهبهم.

منشأ علم الخلاف:

ولعل ظهور مدرستي الحديث والرأي، والخلاف بينهما في نهاية القرن الأول الهجري وطيلة القرن الثاني، وانتصار كل طائفة لرأيها وأدلتها، وحاجة كل مدرسة إلى قطع المعترضين عليها عن الكلام والمناقشة لعل تلك المبررات أوجدت بوادر هذا العلم وبداياته.

لكن الخلاف بين المدرستين خفت حدته كثيراً بعد ظهور كتاب الشافعي (الرسالة) في علم الأصول، هذا الكتاب الذي كان له الفضل في التقريب بين أهل الحديث وأهل الرأي، ومحاولة تضييق الشقة بينهما.

لكن القرون اللاحقة - الثالث والرابع والخامس- شهدت نضج علم الفقه على أيدي الأئمة المجتهدين الذين برزوا فيه، وكان لهم نشاط علمي واسع، وتلاميذ حملوا اجتهاداتهم، وتشربوا قواعدهم، ونافحوا ودافعوا عن آراء أئمتهم، حتى كتب للمذاهب الفقهية الأربعة البقاء دون سواها بسبب ذلك، وكتب الاندثار على غيرها لعدم تعلق أحد أو سعيه في إبرازها ونصرتها.

ولا شك أن نشاط تلاميذ الأئمة أوجد ووطد دعائم علم الخلاف، بحيث أصبح علماً مستقلًّا له كتبه ومؤلفاته وقواعده وكلياته وأسبابه ومبرراته.

رأي ابن خلدون في علم الخلاف:

يقول ابن خلدون في ذلك: فاعلم أن هذا الفقه المستنبط من الأدلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم، خلافاً لا بد من وقوعه لما قدمناه. واتسع ذلك في الملة اتساعاً عظيماً، وكان للمقلدين أن يقلدوا من شاءوا منهم. ثم لما انتهى ذلك إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار، وكانوا بمكان من حسن الظن بهم، اقتصر الناس على تقليدهم ومنعوا من تقليد سواهم لذهاب الاجتهاد وصعوبته وتشعب العلوم التي هي مواده، باتصال الزمان، وافتقاد من يقوم على سوى هذه المذاهب الأربعة.

فأقيمت هذه المذاهب الأربعة على أصول الملة، وأجري الخلاف بين المتمسكين بها والآخذين بأحكامها مجرى الخلاف في النصوص الشرعية والأصول الفقهية. وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كلٍّ مذهب إمامه. تجري على أصول صحيحة وطرائق قويمة. يحتج بها كل على صحة مذهبه الذي قلده وتمسك به. وأجريت في مسائل الشريعة كلها وفي كل باب من أبواب الفقه.

ثم يقول ابن خلدون مبيناً فوائد علم الخلاف: وكان في هذه المناظرات بيان مآخذ هؤلاء الأئمة، ومثارات اختلافهم ومواقع اجتهادهم. وكان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافيات. ولا بد لصاحبه من معرفة القواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام كما يحتاج المجتهد.

وقد حاول الدكتور محمد الزحيلي تحديد أسباب الاختلاف بين الفقهاء، فنجده قد حصرها في سبع نقاط أساسية نوردها فيما يلي:

١- الاختلاف في الأمور الجبلية: إذ إن الأئمة والعلماء يتفاوتون في

ملكاتهم وطبائعهم وعقولهم، وهذا أمر طبعي ينتج عنه في بعض الأحايين اختلاف الأحكام المستنبطة من الأدلة الشرعية.

٢- الاختلاف في اللغة العربية: وهي لغة القرآن ولغة الحديث النبوي الشريف، ولا شك أن علماء اللغة أنفسهم يختلفون في وضع الألفاظ ودلالتها، والأسلوب والصيغ، والمشترك والمترادف، والحقيقة والمجاز، وهذا ما انتقل بدوره إلى علماء الفقه، وأدى بالتالي إلى اختلاف الأحكام.

٣- اختلاف البيئات والعصور والمصالح: لا شك في أن لذلك أثرًا كبيرًا في أحكام الشريعة، التي جاءت في الأصل مراعية لمصالح الناس، ومتناسقة مع بيئاتهم وأزمانهم، في فرعياتها بشكل خاص، وفيما يتعلق بالمصالح الدنيوية على وجه أخص. وهذا كله من فضل الله وسماحة الدين.

والخلاف الناتج عن مثل هذه الأسباب يسميه الفقهاء اختلاف عصر وزمان، وليس اختلاف وحجة وبرهان. وبناء على ذلك وضعت القاعدة الفقهية القائلة: لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان.

٤- الاختلاف في فهم المراد من النص الظني: إذ إن المعني ربما كان خافياً أو محتملًا للتأويل.

٥- الاختلاف في حجية بعض مصادر التشريع: وذلك عند عدم وجود النص من كتاب الله أو حديث رسول الله ﷺ.

٦- الاختلاف في بعض فروع علم الحديث: وذلك كالاختلاف حول تضعيف حديث أو تقويته أو وضع شروط لقبول مراسيل التابعين أو خبر الآحاد ونحو ذلك.

٧- الاختلاف في القواعد والمبادئ الأصولية: وهذا وارد حيث إن تلك القواعد من وضع العلماء، ولهم فيها أسباب موضوعية، ينتج عنها تعدد آرائهم فيها؛ مما يستدعي اختلاف النتائج المبنية عليها.

على أن هذه الأسباب التي ذكرها الدكتور محمد الزحيلي سيقت مساق الإيجاز والإجمال، وسنحاول أن نناقش أسباب الاختلاف بين الفقهاء فيما يلي بشيء من التفصيل والشرح فنقول وبالله التوفيق:

يمكن إجمال أسباب الاختلاف بين الفقهاء في أربعة أسباب هي:

أولًا: الاختلاف في ثبوت النص وعدم ثبوته.

ثانياً: الاختلاف في فهم النصوص الشرعية.

ثالثاً: الاختلاف في طرق الجمع والترجيح.

رابعاً: الاختلاف في القواعد الأصولية وبعض مصادر الاستنباط.

ويتفرع على كل سبب من هذه الأسباب الأربعة أسباب أخرى تفصيلية.

أولاً: الاختلاف في ثبوت النص الشرعي وعدم ثبوته:

الإجماع بين العلماء منعقد على أن النص الشرعي هو المرجع الأول والمصدر الأساسي للمجتهدين جميعهم، وأنه مناط استنباط الأحكام الشرعية، فلا جرم كانت مسألة ثبوت النص الشرعي أو عدم ثبوته هي السبب المباشر لما يقع بين الفقهاء من اختلافات في استنباط الأحكام الشرعية.

فإذا صح ثبوت النص واتضحت دلالته وسلم من المعارض، اعتمد عليه في الحكم ولا خلاف في ذلك[١].

ومن الأمثلة الدالة والشواهد المبينة لهذا السبب من الخلاف بين الفقهاء:

اختلافهم في حكم خبر المستور:

والمستور في اصطلاح المحدثين يقصد به: من يكون عدلًا في الظاهر ولا

---

(١) ينظر: دراسات في الاختلافات الفقهية، د/ محمد أبو الفتح، دار السلام، ط الثالثة ص (٣٢).

تعرف عدالة باطنه[١].

وقد اختلف العلماء في حكم خبر المستور، فمنهم من قبل روايته اعتماداً على حسن الظن بالراوي. قال ابن الصلاح: ويشبه أن يكون العمل على هذا الرأي في كثير من كتب الحديث المشهورة في غير واحد من الرواة الذين تقادم العهد بهم، وتعذرت الخبرة الباطنة بهم[٢].

وإلى هذا الرأي ذهب أبو حنيفة في القضاء؛ «إذ الأصل في الناس الصلاح والعدالة؛ حتى يتبين فيهم ما يوجب القدح، ولم يكلف الناس ما غاب عنهم، وإنما كلفوا الحكم بالظاهر.

وذهب بعض العلماء إلى عدم قبول رواية المستور وعدم جواز الاحتجاج بها، وهو رأي الأصوليين المعتبرين، ودليلهم في ذلك عمل الصحابة، حيث إنهم لم يقبلوا رواية المستور إلا إذا ظهرت عدالته[٣].

اختلافهم في حجية الحديث المرسل:

والمرسل في اصطلاح المحدثين: قول التابعي: قال رسول الله ﷺ: كذا[٤].

أو بعبارة أخرى: هو الحديث الذي سقط من سلسلة إسناده الصحابي، فرفعه التابعي إلى رسول الله ﷺ.

وقد عرف الأصوليون الحديث المرسل بأنه: «قول الصحابي: أمر رسول الله ﷺ بكذا أو نهي عن كذا أو قضى بكذا، من غير أن يصرح بأنه سمع ذلك بنفسه أو شافهه أو شاهده، والتابعي وغيره سواء في ذلك».

---

(١) ينظر: علوم الحديث لابن الصلاح ص (١٠٢).
(٢) السابق نفسه.
(٣) إرشاد الفحول للشوكاني، ط الحلبي ص (٥٣).
(٤) التمهيد لابن عبد البر (١٩١).

وقد اختلف الفقهاء في حجية الحديث المرسل والعمل به:

فذهب الإمام أبو حنيفة ومالك وأحمد إلى الأخذ بمراسيل القرون الثلاثة الأولى؛ لأن ثقات التابعين قد أرسلوا وقبل ذلك منهم.

وذهب الإمام الشافعي إلى أنه يؤخذ بمراسيل سعيد بن المسيب؛ لأنه تتبعها فوجدها مسندة، أما مراسيل غيره من التابعين فلا يؤخذ بها إلا إذا اعتضدت بقول صحابي أو بقول أكثر العلماء، أو كان المرسل إذا سمى لا يسمي إلا عن ثقة، وأما مراسيل غير التابعين فلم يقبل الإمام الشافعي منها شيئاً، وخالف في الأخذ بالمرسل بوجه عام الظاهرية وكثير من المحدثين والفقهاء[1].

ثانياً: اختلاف الفقهاء في فهم النصوص الشرعية:

قد يقع الخلاف بين العلماء بسبب اختلافهم في فهم نص من النصوص الشرعية الثابتة لديهم وطريقة استنباط الحكم منه.

ولهذا السبب جانبان أساسيان:

أحدهما: يتعلق بالنص الشرعي نفسه.

والثاني: يعود إلى المجتهد في فهم ذلك النص.

أما الجانب الأول: وهو الذي يعود إلى النص نفسه؛ فإنه من المعلوم والمشهور أن في اللغة العربية ألفاظاً صريحة في دلالتها، وأخرى محتملة في ذلك، فهناك الألفاظ المشتركة والمجملة وغيرها.

فلفظة «عين» مثلًا: «لفظة مشتركة في اللغة العربية، وضعت لعدة أشياء لا يمكن معرفة المراد منها إلا بمعرفة القرائن المحيطة باللفظ، فقد يقال: رأيت عينًا، ويراد بذلك عين الماء الجارية أو عين الإنسان أو الجاسوس، أو غير

(١) ينظر: فتح المغيث ص (١٣٢).

ذلك مما يحتمله اللفظ المشترك. فإذا اشتمل النص الشرعي على كلمة مشتركة كان لا بد غالباً من الاختلاف في تعيين المراد من هذه الكلمة، وأوضح مثال على ذلك، لفظة «قرء» الواردة في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فإن لفظة القرء تحتمل في اللغة العربية أكثر من معنى فيحتمل أن تطلق ويراد بها الحيض، كما تحتمل أن يراد بها الطهر، كما تحتمل إرادة المعنيين معاً».

يقول الإمام القرطبي: واختلف العلماء في الأقراء، فقال أهل الكوفة: هي الحيض، وهو قول عمر وعلى وابن مسعود وأبي موسى ومجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة والسدي.

وقال أهل الحجاز: هي الأطهار، وهو قول عائشة وابن عمر وزيد بن ثابت والزهري وأبان بن عثمان والشافعي.

فمن جعل القرء اسما للحيض سماه بذلك؛ لاجتماع الدم في الرحم، ومن جعله اسما للطهر فلاجتماعه في البدن.

وأما الجانب الثاني المرتبط بطريقة المجتهد نفسه في فهم النص والاستنباط منه: فهو أكثر وضوحاً ووقوعاً من الجانب الأول، نتيجة الاختلاف الأصيل بين المجتهدين في الفهم والنظر والإدراك.

وأظهر مثال على ذلك ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عمر رضي الله عنهما: قال: «قال لنا النبي ﷺ لما رجع من الأحزاب: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها - أي: ديار بني قريظة- وقال بعضهم: لم يرد منا ذلك، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف أحداً منهم»[١].

---

(١) أخرجه البخارى (٨/ ١٦٧) كتاب المغازى، باب مرجع النبى ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بنى قريظة ومحاصرته إليهم (٤١١٩)، ومسلم (٣/ ١٣٩١) كتاب السير، باب المبادرة بالغزو وتقديم الأمرين المتعارضين (٦٩/ ١٧٧٠).

«فلقد أقر رسول الله ﷺ خلافهم في فهم النص الواحد الذي سمعه الجميع منه، وهم أصحابه والمخالطون له صباحاً ومساء، سفراً وحضراً، والمتلقون عنه كلام الله، فهم أفهم الناس لمراده، إذ إن أعلم الناس بمقاصد المتكلم من كلامه أصحابه، وقد أدى اجتهاد بعضهم في هذه المسألة إلى تأخير الصلاة عن وقتها عمداً أخذاً بظاهر النص، كما أدى اجتهاد الآخرين إلى مخالفة النص في الظاهر فصلوا في الطريق»(١).

ثالثاً: الاختلاف في طرق الجمع والترجيح بين النصوص الشرعية المتعارضة:

قد يختلف العلماء في بعض الأحكام الشرعية، نتيجة تعارض بعض النصوص الشرعية، فيحاول العلماء التوفيق بين هذه النصوص، بالجمع بينها ما أمكن الجمع؛ عملًا بالأدلة جميعاً فلا يصيرون إلى ترجيح بعضها على بعض إلا بعد تعذر الجمع عليهم، لأن التعارض إنما هو بالنسبة لفهم المجتهد ومداركه العلمية، أما في حقيقة الأمر فلا تعارض في الشريعة الغراء(٢).

ومن شواهد التعارض بين النصوص الشرعية المفضي إلى الخلاف بين العلماء:

اختلاف العلماء في قراءة الفاتحة خلف الإمام:

حيث اختلف الفقهاء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال(٣):

القول الأول: أن المأموم يقرأ مع الإمام فاتحة الكتاب سواء أكانت الصلاة سرية أم جهرية، وهو قول الإمام الشافعي وأحمد رحمهما الله.

القول الثاني: أنه لا يقرأ المأموم مطلقاً، سواء أكانت الصلاة سرية أم

---

(١) ينظر: دراسات في الاختلافات الفقهية، محمد أبو الفتح، ص (٤٦-٤٧).
(٢) ينظر: السابق ص (٤٨).
(٣) ينظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد (١/ ١٥٤) ط دار الكتب العلمية.

جهرية، وهو قول الإمام أبي حنيفة رحمه الله.

القول الثالث: أنه يقرأ في السرية ولا يقرأ في الجهرية، وهو قول الإمام مالك رحمه الله.

ومرد ذلك الاختلاف هو اختلاف النصوص وتعارضها في الظاهر فمن العلماء من رجح نصًا على نص فقال بالقراءة مطلقاً، ومنهم من قال بعدم القراءة، ومنهم من حاول الجمع بين النصوص فحمل أحاديث النهي عن القراءة على الصلاة الجهرية، وحمل الأحاديث الأخرى على الصلاة السرية كما فعل الإمام مالك.

اختلاف العلماء في صفة صلاة الكسوف والقراءة فيها:

حيث ذهب الإمام الشافعي وجمهور أهل الحجاز والإمام أحمد: إلى أن صلاة الكسوف ركعتان، في كل ركعة منهما ركوعان.

أما الإمام أبو حنيفة - وتابعه الكوفيون - فذهب إلى أن صلاة الكسوف ركعتان كهيئة صلاة العيد، وصلاة الجمعة.

ومرد الاختلاف بين الفقهاء في ذلك إلى التعارض الظاهر بين الأحاديث الكثيرة الواردة في صفة صلاة الكسوف، فمنها ما يدل على أن النبي ﷺ صلاها ركعتين في كل ركعة ركوعان، مثل ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كسفت الشمس في عهد النبي ﷺ، فصلى رسول الله ﷺ بالناس، فقام فأطال القيام، ثم ركع فأطال الركوع، ثم قام، فأطال القيام، وهو دون القيام الأول، ثم ركع فأطال الركوع وهو دون الركوع الأول ثم سجد فأطال السجود...»[1].

واستدل الإمام أبو حنيفة والكوفيون بما ورد من أحاديث أخرى صحيحة أن

(١) أخرجه البخاري (٢/٥٢٩) حديث (١٠٤٤)، ومسلم (٢/٦١٨) حديث (١/ ٩٠٦).

رسول الله ﷺ صلاها كغيرها من الصلوات، كحديث أبي بكرة[1] وعدد من الصحابة رضوان الله عليهم أن رسول الله ﷺ صلى في الكسوف ركعتين كصلاة العيد.

«ونظر بعض العلماء إلى هذه المسألة نظرة أخرى فحاول أن يجمع بين هذه النصوص المتعارضة، كالإمام ابن جرير الطبري، فجعل الأمر على التخيير، فللمرء أن يصليها هكذا وهكذا، فالجمع جائز مشروع عنده؛ حتى قال في ذلك القاضي عياض: وهو الأولى؛ فإن الجمع أولى من الترجيح»[2].

رابعاً: الاختلاف في القواعد الأصولية وبعض مصادر الاستنباط:

اختلف العلماء المجتهدون في حجية بعض المصادر والأصول الاجتهادية، وكان ذلك سبباً آخر من أسباب الخلاف بينهم، ومن الأمثلة الدالة على ذلك:

اختلاف الأصوليين في حجية مفهوم المخالفة:

عرف الأصوليون مفهوم المخالفة بأنه: «ما يكون مفهوم اللفظ في محل السكوت مخالفاً لمدلوله في محل النطق» ويسمى أيضاً دليل الخطاب[3].

ومثاله: قوله ﷺ «مطل الغني ظلم»[4].

فيؤخذ من الحديث وفقاً لمفهوم المخالفة: أن تأخير العسر لوفاء الدين لا يعتبر ظلماً.

وقد اشتجر الخلاف بين الفقهاء والأصوليين في صحة الاحتجاج بمفهوم

---

(١) أخرجه البخارى (٣/ ٢٢٢) كتاب الكسوف، باب الصلاة فى كسوف الشمس حديث (١٠٤٠).
(٢) بداية المجتهد ونهاية المقتصد (١/ ٢١٠-٢١١).
(٣) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي، ط دار الكتب العلمية (٣/ ٦٧).
(٤) أخرجه البخاري (٤/ ٤٦٤) حديث (٣٨)، ومسلم (٣/ ١١٩٧) حديث (٣٣/ ١٥٦٤).

المخالفة على قولين:

الأول: يجوز الاحتجاج بمفهوم المخالفة، ولكن بشروط معينة، وهو قول الجمهور.

الثاني: لا يصح الاحتجاج به في كلام الشارع [1] وبه قال الحنفية.

اختلافهم في عمل الراوي بخلاف ما رواه:

اختلف الفقهاء فيما إذا عمل الراوي بخلاف ما رواه، فذهب الجمهور إلى اعتبار روايته دون عمله، بينما ذهب الحنفية إلى اعتبار عمله دون روايته، حيث عدوا عمله بمثابة الناسخ لروايته. وقال الحنفية في ذلك: إن كان الخلاف حقًّا بطل الاحتجاج بالحديث، وإن كان باطلًا سقطت روايته؛ لأنه لم يكن عدلًا.

ولقد احتج الجمهور لرأيهم باعتبار روايته دون عمله، بأن الحجة فيما رواه لا فيما عمله، إذ إن عمله من المحتمل أن يكون اجتهاداً، واجتهاده غير ملزم لغيره[2].

اختلافهم في حمل المطلق على المقيد:

اختلف العلماء في حمل المطلق على المقيد اختلافا يشبه إلى حد بعيد اختلافهم في حمل النص العام على الخاص.

فذهب الجمهور إلى حمل المطلق على المقيد بشروط تعرف في كتب الأصول، وخالف في ذلك الحنفية، فقالوا: لا يحمل المطلق على المقيد من ذلك:

- اختلافهم في عدد الرضعات المحرِّمة في الرضاعة[3].

(١) ينظر: دراسات في الاختلافات الفقهية ص(٦٢-٦٣).
(٢) فواتح الرحموت (٢/ ١٦٢) المطبعة الأميرية.
(٣) دراسات في الاختلافات الفقهية (٦٨-٧٠).

طبيعة الاختلاف في عهد التابعين:

أشرنا آنفاً إلى أن التابعين قد اختلفوا في كثير من المسائل، كما اختلف الصحابة من قبل، بيد أن اختلاف التابعين كانت له معالمه التي امتاز بها وقسماته الخاصة التي ميزته عن اختلاف الصحابة قبلهم واختلاف الأئمة بعدهم.

وفي الحق أن الخلاف الشاجر بين التابعين في كثير من القضايا الفقهية وغيرها مرده إلى تفرق الصحابة في الأقاليم المختلفة والأمصار المفتوحة، فإذا كان عمر بن الخطاب احتجز الصحابة في المدينة وحظر عليهم الانتقال إلى الأمصار، فإن الخليفة عثمان بن عفان حين ولي الخلافة سمح لهم بالخروج من المدينة إلى حيث يشاءون من ديار الإسلام.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: وفي الحقيقة أنه حتى قبل العصر الأموي لم يكن الذين خرجوا من المدينة هم أكثرهم عدداً، بل كانوا الأقل.

ذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب- رضي الله عنه - احتجز كبار الصحابة في المدينة ولم يخرجهم منها لينتفع برأيهم أولًا، ولأسباب تتعلق بحسن السياسة وتدبير الأمور على أكمل وجه ثانيًا.

ولكن لما آلت الخلافة إلى ذي النورين عثمان بن عفان أذن لهم بالخروج، فخرج بعضهم، ولم يكن أكثر الذين خرجوا من الفقهاء ولا من كبار الصحابة إلا من قد يكون خرج في عهد الإمام عمر رضي الله عنه بإذن منه، كعبد الله بن مسعود، وأبي موسى الأشعري وغيرهما(١).

وأدى تفرق الصحابة في الأمصار المفتوحة إلى تفرق العلم وتوزعه، حيث كان مع كل منهم ما ليس مع الآخر من سنة رسول الله ﷺ، كما أن اجتهادهم فيما لا نص فيه يختلف، فكانت القضية تنزل بهم فيحكمون فيها بما علموه

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية (٢٤٥-٢٤٦).

من الشرع، أو يجتهدون فيها، وقد يكون فيها حديث عند صحابى آخر في بلد آخر، وقد أخذ عن الصحابة التابعون كل في مكانه، وتتلمذوا عليهم، وأفتوا بفتاواهم، فمثلًا تأثر المكيون بفتاوى ابن عباس، والمدنيون بفتاوى ابن عمر، والكوفيون بفتاوى ابن مسعود، وهكذا، فاجتمع للتابعين ما بلغهم من الأحاديث، وما بلغهم من أقوال الصحابة وفتاواهم، واجتهدوا في ترجيح بعض الأقوال على بعض، وفي استنباط أحكام لوقائع لم تحدث من قبل، واشتهر في كل قطر منهم أئمة يؤخذ العلم عنهم.

ويقول الإمام الدهلوي: صار لكل عالم من العلماء التابعين مذهب على حياله، فانتصب في كل بلد إمام مثل سعيد بن المسيب وسالم بن عبد الله والقاضي يحيى بن سعيد وربيعة بن أبي عبد الرحمن فى المدينة وعطاء بن رباح بمكة وإبراهيم النخعي والشعبي بالكوفة، والحسن بالبصرة، وطاوس بن كيسان باليمن؛ فأظمأ الله أكباداً إلى علومهم، فرغبوا فيها، وأخذوا عنهم الحديث وفتاوى الصحابة وأقاويلهم، ومذاهب العلماء وتحقيقاتهم من عند أنفسهم، واستفتى فيها المستفتون، ودارت المسائل بينهم، ورفعت إليهم الأقضية(١).

ولا يمكن حصر المسائل التي اختلف فيها التابعون- رحمهم الله- ويمكن للعقل أن يتصور كمية المسائل التي اختلف فيها الصحابة، ثم يضيف إليها أضعافها ليدرك المسائل التي اختلف فيها التابعون، وليس هذا معناه أن حياتهم كلها اختلاف، ولكن كثرة المسائل الواردة عليهم، جعلتهم يعملون أفكارهم، ويشحذون هممهم للوصول إلى الحق المنشود.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة - قبولًا عامًّا - يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته دقيق ولا

(١) ينظر: حجة الله البالغة (١/ ١٠٢).

جليل، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينيًا على وجوب اتباع الرسول، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد له من عذر في تركه»(١).

وقد التزم التابعون فيما وقع بينهم من اختلافات بمنهاج الصحابة قبلهم من تحري الحجة والدليل والوقوف عند النص الصحيح، مع التزام آداب الحوار والجدال التي أقرها الإسلام قرآناً وسنة، وسار عليها الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

ومما يدل على ذلك:

ما أخرجه عبد الرزاق من طريق الشعبي قال: جاء رجل إلى شريح، فسأله عن دية الأصابع، فقال الرجل: سبحان الله، هذه وهذه سواء مشيراً إلى الإبهام والخنصر، فقال شريح: ويحك إن السنة منعت القياس، اتبع ولا تبتدع(٢).

وأخرج مالك في الموطأ عن ربيعة قال: سألت سعيد بن المسيب، كم في أصبع المرأة؟ قال: عشرة من الإبل. قلت: ففي أصبعين؟ قال: عشرون. قلت: ففي ثلاث؟ قال: ثلاثون. قلت: ففي أربع؟ قال: عشرون. قلت: حين عظم جرحها واشتدت مصيبتها نقص عقلها، فقال سعيد: أعراقي أنت؟ فقال ربيعة: بل عالم متثبت. قال سعيد: هي السنة(٣).

ولقد انتهى الخلاف بينهما في هذه القضية بأدب رفيع دون أن يتعصب أحد لرأيه أو يتهم أحدهما بالجهل أو يزعم لنفسه أنه على الحق وأن غيره باطل، ونحن نعلم أن سعيد بن المسيب وأهل المدينة يرون أن دية المرأة كدية الرجل حتى تبلغ الثلث من دية الرجل.

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٣٢).
(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩/ ٣٨٥).
(٣) ينظر: الموطأ (٢/ ٨٥٣) ط. الحلبي.

واستدلوا على ذلك بقول رسول الله ﷺ عقل المرأة مثل عقل الرجل حتى تبلغ الثلث من ديتها.

وأما مذهب أهل العراق فقالوا: إن ديتها دية الرجل ابتداء.

لقد تتلمذ هؤلاء على أيدي هؤلاء الصحابة الأجلاء فقاموا بنشر الفقه والعلم عن هؤلاء الصحابة، فقد انتشر مذهب ابن مسعود في العراق عن طريق أتباعه، وانتشر مذهب زيد بن ثابت وعمر بالمدينة، ومذهب ابن عباس بمكة؛ فكان لكل مذهبه الذي يتمسك به.

وقد أنتج الخلاف الفقهي بين التابعين وما نشأ بينهم بسببه من حوار وجدال ومناظرة:

ظهور المدارس الفقهية المختلفية وانتشارها في مختلف الأقاليم الإسلامية، بيد أننا نستطيع أن نردها جميعاً إلى مدرستين كبيرتين هما:

١- مدرسة أهل الحديث:

وقد امتاز أصحاب هذه المدرسة الفقهية بالتزام النصوص الشرعية والوقوف عندها والتمسك بها، وكان ذلك منهاجهم في النظر والاستنباط.

وقد اتخذت هذه المدرسة من مدينة رسول الله ﷺ مستقرًا لها ومقاماً، وسميت بمدرسة أهل الحديث؛ لما امتازت به من كثرة الرواية لحديث رسول الله ﷺ، ولقلة الحاجة إلى استعمال الرأي في الاجتهاد، ولندرة الحوادث المدنية المعقدة فيها.

وظلت هذه المدرسة المصدر والمحور للحركة العلمية؛ إذ كانت دار الهجرة وموئل التشريع، بعد أن استوطنها رسول الله ﷺ وتكونت فيها أمته وسنته، وعايشه فيها أصحابه من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان؛ فأصبحت مأوى الفقهاء، ومجمع العلماء، وبقيت كذلك ردحًا

طويلًا من الزمن حتى بعد ارتحال الخلافة عنها إلى الكوفة، ثم إلى دمشق، ثم إلى بغداد، فكانت مركز الإشعاع في العالم الإسلامي، وسبب النهضة الفقهية التي قدر لها أن تزدهر وتكمل في العصر العباسي.

٢- مدرسة أهل الرأي:

وقد زادت هذه المدرسة من التوسع في الرأي والتعرف على المصالح وعلى الأحكام، وانتشرت هذه المدرسة في العراق.

يقول الشيخ جاد الحق رحمه الله: «عاصرت هذه المدرسة مدرسة المدينة بالحجاز، فلقد حظيت العراق بسكني الكثير من الصحابة فيها، حيث كانت الكوفة والبصرة قاعدتين للجيوش الإسلامية؛ إذ منها كان المد الإسلامي إلى خراسان وما ورائها، ونزل بها أكثر علماء الصحابة، وكان عبد الله بن مسعود والياً وتابعاً في الكوفة، وكذلك سعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر وغيرهم، ثم الكوفة مقر لعلي بن أبي طالب، وقد توارد فيها الكثيرون الذين كانوا مناصرين له كعبد الله بن عباس وغيره».

وهكذا نجد أن الجميع متبعون لما كان عليه الصحابة، فحين تصح السنة لا يستطيع أحد أن يخالفها، وإذا حدث اختلاف فإنه يكون في الفهم فقط، ولكن يسلم كل منهما للآخر ما يفهمه ما دام اللفظ يحتمله.

تعقيب:

لعل القارئ الكريم قد ظهر له - من خلال ما سبق - أن الصلة بين الاختلاف والحوار في الفكر الإسلامي صلة وثيقة لا يستقيم في ضوئها أن يُتصور وقوع الاختلاف بين الأئمة والفقهاء غير مقرون بالحوار، كآلية مهمة تضبط الخلاف وتجعله سبباً من أسباب التوسيع على المسلمين وعاملًا من عوامل التخفيف عليهم، وليس سبباً من أسباب الفرقة والخصومة.

فلقد وعى التابعون وعياً كاملًا ضرورة الاختلاف، وأنه سنة من السنن

الثابتة التي أودعها الله الحياة، وأدركوا أن الخلاف لا نكارة فيه ما دام له أسبابه الموضوعية التي تسوغه وتبرر وجوده، أما النكارة ففي عدم الاعتماد على الحوار الموضوعي والمناقشة العقلية المدعومة بالحجة والبرهان سبيلًا للتعامل مع الخلاف.

ومن هنا نجد التابعين ملتزمين بأدب الحوار الإسلامي الذي أرسى تعاليمه ومبادئه القرآن والسنة، وهي التعاليم والمبادئ التي ألزم بها الصحابة أنفسهم في حوارهم مع رسول الله ﷺ وفي محاوراتهم فيما بينهم، وقد أشرنا إليها عند حديثنا عن منهج الحوار لدى الصحابة في الفصل السابق.

وفي ضوء هذه الحقيقة يغدو الحديث عن الاختلاف ومشروعيته وأسبابه ونتائجه مهاداً صالحاً للحديث عن أدب الحوار، وهو ما قمنا به، وسوف نزيد هذا الأمر تفصيلًا وتوضيحاً في الموضوع التالي:

أدب الحوار في عهد الأئمة:

جاء بعد التابعين تلاميذهم، وهم تابعو التابعين، ولعل أشهرهم الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب، وهم الإمام مالك، والإمام أحمد بن حنبل، والإمام الشافعي، والإمام أبو حنيفة.

ويعتبر الأئمة الثلاثة الإمام مالك، والإمام الشافعي، والإمام أحمد فقهاء حديث وأثر، فهم الذين تلقوا فقه أهل المدينة، وحملوا علومهم، أما الإمام أبو حنيفة فهو وارث فقه «أهل الرأي»، ومقدم مدرستهم في عصره.

ولقد كان الاختلاف الواقع بين مدرسة «سعيد بن المسيب»، التي قامت على فقه الصحابة وآثارهم، وسار على نهجها المالكية والشافعية والحنابلة وبين مدرسة «إبراهيم النخعي» التي تعتمد على الرأي إن غاب الأثر - هذا الاختلاف كان طبيعيًا أن ينتقل إلى كل من أخذ بمنهج إحدى المدرستين.

وهكذا عرف الاختلاف طريقه بين هؤلاء الأئمة الأربعة أصحاب

المذاهب، وبين تلاميذهم المنتمين إلى مذاهبهم المتأثرين بها في النظر والاستنباط الفقهي. بيد أن الاختلاف بينهم كان يحوطه الحوار الجميل، والأدب الرفيع، والجدال الحسن.

ولقد كان الاختلاف بين الأئمة لا يتجاوز الأمور الاجتهادية، ولم يَحْدُث بينهم شقاقٌ ولا نزاع؛ ذلك لأنه لم ينجم عن هوى أو رغبة أو غرض، بل كان الواحد منهم يبذل قصارى جهده من أجل الوصول إلى الحق، وإرضاء الله سبحانه وتعالى.

فمن النماذج الدالة على ذلك:

تلك المناظرات التي جرت بين الشافعي وابن عُلية، ومنها ما رواه الحارث ابن سريج النقال، قال:

ومن صور الاختلاف في عصر التابعين - رحمهم الله - المناظرات التي جرت بين الشافعي وابن علية، ومنها ما رواه الحارث بن سريج النقال، قال: دخلت على الشافعي يوماً وعنده أحمد بن حنبل، والحسين الفلاس، وكان الحسين أحد تلاميذ الشافعي المقدمين في حفظ الحديث، وعنده جماعة من أهل الحديث، والبيت غاص بالناس، وبين يديه ابن علية، والشافعي يكلمه في خبر الواحد.

فقلت يا أبا عبد الله عندك وجوه الناس، وقد أقبلت على هذا المبتدع تكلمه؟

فقال لي وهو يبتسم: كلامي لهذا بحضرتهم أنفع لهم من كلامي لهم.

فقال الحاضرون: صدق.

فأقبل الشافعي عليه، فقال له: ألست تزعم أن الحجة هي الإجماع؟

قال ابن علية: نعم.

فقال الشافعي: خبرني عن خبر الواحد العدل أبإجماع دفعته أم بغير إجماع؟

فانقطع ابن علية، ولم يجب، وسر القوم بذلك.

وقد جرت مناظرة بين الشافعي ومحمد بن الحسن، فقد قال محمد بن الحسن للشافعي: ما تقول في رجل غصب ساحة، وبنى عليها جدارًا، وأنفق عليها ألف دينار، فجاء صاحب الساحة، وأقام شاهدين على أنها ملكه؟

فقال الشافعي: أقول لصاحب الساحة ترضى أن تأخذ قيمتها؟ فإن رضي، وإلا قلعت البناء ودفعت ساحته إليه.

قال محمد: فما تقول في رجل غصب لوحاً من خشب، فأدخله في سفينة، ووصلت السفينة إلى لجة البحر، فأتى صاحب اللوح بشاهدين عدلين، أكنت تنزع اللوح من السفينة؟

قال: لا.

قال: الله أكبر، تركت قولك، ثم قال: ما تقول في رجل غصب خيطاً من إبريسم، فمزق بطنه، فخاط بذلك الإبريسم تلك الجراحة، فجاء صاحب الخيط بشاهدين عدلين أن هذا الخيط مغصوب، أكنت تنزع الخيط من بطنه؟

قال: لا.

قال: الله أكبر، تركت قولك، وقال أصحابه: تركت قولك.

قال الشافعي: لا تعجلوا، أرأيت لو كان اللوح لوح نفسه، ثم أراد أن ينزع ذلك اللوح من السفينة حال كونها في لجة البحر، أمباح له ذلك أم محرم؟

قال: بل محرم.

قال أفرأيت لو كان الخيط خيط نفسه، وأراد أن ينزعه من بطنه، ويقتل نفسه، أمباح ذلك أم محرم؟

قال: بل محرم.

قلت: أرأيت لو جاء مالك الساحة، وأراد أن يهدم البناء، وينزعها، أمحرم ذلك أم مباح؟

قال: بل مباح.

قال الشافعي: يرحمك الله، فكيف تقيس مباحاً على محرم؟

فقال محمد: فكيف تصنع بصاحب السفينة؟

قال الشافعي: آمره أن يسيرها إلى أقرب السواحل، ثم أقول له: انزع اللوح، وادفعه إليه.

فقال محمد: قد قال النبي ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»[1].

قال الشافعي: ومن ضره؟ هو الذي ضر نفسه، ثم قال: ما تقول في رجل من الأشراف غصب جارية لرجل من الزنج في غاية الرذالة، ثم أولدها عشرة كلهم قضاة سادات أشراف خطباء، فأتى صاحب الجارية بشاهدين عدلين على أن الجارية التي هي أم هؤلاء الأولاد، كانت مملوكة له، ماذا تعمل؟

فقال محمد بن الحسن: أحكم بأن أولئك الأولاد مماليك لذلك الرجل.

فقال الشافعي: أنشدك الله، أي هذين أعظم ضررًا، أن تقلع الساحة وتردها إلى مالكها، أو تحكم برد الجارية إلى مولاها، وتحكم برق هؤلاء الأولاد؟ فانقطع محمد بن الحسن.

فانظر إلى ذلك الأدب الرفيع في الحوار والمناظرة، بين سلفنا الصالح، قس ما نحن اليوم فيه بما كانوا هم عليه، ولا شك أن المتأمل لمثل المناظرة، التي جرت بين الشافعي ومحمد بن الحسن، يدرك تمام الإدراك أن سلفنا

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ٧٨٤) حديث (٢٣٤٠)، وأحمد (٥/ ٣٢٦-٣٢٧).

الصالح كانوا على خلق عال، وعلم واسع، ولأجل ذلك وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الرفعة والسؤدد، فحري بنا أن نقتفي أثرهم، وأن نلتزم سيرتهم، وإلا فعلى أمة الإسلام السلام.

ومن المناظرات بين السلف، ما جرى بين أبي يوسف والإمام مالك، حيث قال: أبو يوسف للإمام مالك: تؤذنون بالترجيع، وليس عندكم عن النبي ﷺ فيه حديث؟

فقال مالك: يا سبحان الله!! ما رأيت أمراً أعجب من هذا، ينادى على رءوس الأشهاد في كل يوم خمس مرات، يتوارثه الأبناء عن الآباء، من لدن رسول الله إلى زماننا هذا، أيحتاج فيه إلى فلان عن فلان؟!! هذا أصح عندنا من الحديث.

وقد حصلت مناظرة عظمى بين الإمام عبد العزيز الكناني وبشر المريسي، حول خلق القرآن، وهي مناظرة شهيرة، نصر فيها الكناني مذهب أهل الحق، ودحض فيها شبهات أهل الزيغ والضلال، فجزاه الله خير الجزاء.

ومن نماذج الحوار الرفيع، والأدب العالي بين الأئمة، تلك الرسالة التي بعث بها الإمام الليث بن سعد إلى الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة؛ ونظراً لطول هذه الرسالة، نشير إلى بعضها فيما يلي:

«سلام عليك، وإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد: عافانا الله وإياك، وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة، قد بلغني كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرُّني، فأدام الله ذلك لكم، وأتمه بالعون على شكره، والزيادة من إحسانه، وذكرت نظرك في الكتب التي بعثت بها إليك وإقامتك إياها، وختمك عليها بخاتمك، وقد أتتنا فجزاك الله عما قدمت منها خيراً؛ فإنها كتب انتهت إلينا عنك، فأحببت أن أبلغك حقيقتها بنظرك فيها.

ثم يقول: وإنه بلغك أني أفتي الناس بأشياء مخالفة لما عليه الناس عندكم،

وأني يحق علي الخوف على نفسي؛ لاعتماد من قبلي على ما أفتيهم به، وأن الناس تبع لأهل المدينة التي كانت إليها الهجرة، وبها نزل القرآن ، وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك، وإن شاء الله تعالى وقع مني بالموقع الذي تحب، وما أجد أحداً ينسب إليه العلم أكره لشواذِّ الفتيا، ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه.. مني، والحمد لله رب العالمين لا شريك له».

ثم يمضي الإمام الليث بن سعد في رسالته، مورداً أوجه الاختلاف بينه وبين الإمام مالك رحمهما الله تعالى، حول حجية عمل أهل المدينة، مبيناً أن كثيراً من السابقين الأولين، الذين تخرجوا في مدرسة النبوة، حملوا إلى مشارق الأرض ومغاربها، وهم يجاهدون، ما تعلموه من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وبين أن التابعين قد اختلفوا في أشياء، وكذلك من أتى بعدهم من أمثال ربيعة بن عامر، حيث يذكر بعض مآخذه عليه، ثم يقول: ومع ذلك يحمد الله أنه عند ربيعة خير كثير، وعقل أصيل، ولسان بليغ، وفضل مستبين، وطريقة حسنة في الإسلام، ومودة صادقة لإخوانه عامة ولنا خاصة، رحمه الله وغفر له وجزاه بأحسن ما عمله ثم يذكر من أمثلة الاختلاف بينه وبين الإمام مالك قضايا عديدة» مثل: الجمع ليلة المطر- والقضاء بشاهد ويمين - وتقديم الصلاة على الخطبة في الاستسقاء وقضايا خلافية أخرى، ثم قال في نهاية الرسالة «.... وقد تركت أشياء كثيرة من أشياء، هذا وأنا أحب توفيق الله إياك، وطول بقائك؛ لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك، مع استئناسي بمكانك وإن نأت الدار، فهذه منزلتك عندي ورأيي فيك فاستيقنه، ولا تترك الكتاب إلي بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك، وحاجة إن كانت لك، أو لأحد يوصل بك؛ فإني أسر بذلك، كتبت إليك ونحن معافون، والحمد لله، ونسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكرها وتمام ما أنعم به علينا، والسلام عليكم ورحمة الله».

ولعله ظهر للقارئ الكريم ما تنطوي عليه رسالة الإمام الليث بن سعد، إلى الإمام مالك رضي الله عنهما، من أدب عال، وخلق رفيع، وحوار مهذب، ومناقشة موضوعية، وكلها صفات امتاز بها الحوار العلمي بين علماء المسلمين في خلافهم.

ولقد كانت رسالة الإمام الليث بن سعد ردًّا على رسالة بعث بها إليه الإمام مالك رضي الله عنهما، في فضل علم أهل المدينة وترجيحه على غيرهم، واقتداء السلف بهم، وقد جاء فيها:

من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد، سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

عصمنا الله وإياك بطاعته في السر والعلانية، وعافانا وإياك من كل مكروه.

اعلم رحمك الله أنه بلغني أنك تقضي الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا، وببلدنا الذي نحن فيه.

وأنت في إمامتك وفضلك، ومنزلتك من أهل بلدك، وحاجة من قبلك إليك، واعتمادهم على ما جاءهم منك، حقيق بأن تخاف على نفسك، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه؛ فإن الله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة]. وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر].

فإن الناس تبع لأهل المدينة؛ إليها كانت الهجرة؛ وبها نزل القرآن؛ وأحل الحلال وحرم الحرام؛ إذ رسول الله ﷺ بين أظهرهم يحضرون الوحي والتنزيل، ويأمرهم فيطيعونه، ويسن لهم فيتبعونه، حتى توفاه الله، واختار له ما عنده، صلوات الله عليه ورحمته وبركاته.

ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته ممن ولي الأمر من بعده، فما نزل بهم مما عملوا أنفذوه، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه، ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا في ذلك اجتهادهم، وحداثة عهدهم، وإن خالفهم مخالف، أو قال أمراً غيره أقوى منه وأولى، ترك قوله، وعمل بغيره، ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون ذلك السبيل، ويتبعون تلك السنن، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولًا به، لم أر لأحد خلافه، للذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز لأحد انتحالها ولا ادعاؤها.

ولو ذهب أهل الأمصار يقولون: هذا العمل الذي ببلدنا، وهذا الذي مضى عليه من مضى منا، لم يكونوا من ذلك على ثقة، ولم يكن من ذلك الذي جاز لهم.

فانظر - رحمك الله- فيما كتبت إليك به لنفسك، واعلم أني أرجو ألا يكون دعاني ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله تعالى وحده، والنظر لك والضن بك.

فأنزل كتابي هذا منزلته، فإنك إن فعلت تعلم أني لم آلك نصحاً.

وفقنا الله وإياك لطاعته وطاعة رسوله في كل أمر، وعلى كل حال.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وكتب يوم الأحد لتسع مضين من صفر.

أرأيت أيها القارئ الكريم إلى أدب الإمام مالك رضي الله عنه، وخلقه الرفيع، حيث كتب ينصح إلى الإمام الليث بن سعد بترك بعض آرائه المخالفة لآراء أهل المدينة. أرأيت كيف يكون الخلاف وكيف يكون الحوار حوله؟!

ومن النماذج الدالة على وجود الاختلاف بين الأئمة، مع التزامهم بالأدب الرفيع والحوار المهذب، اختلاف الإمام أبي حنيفة مع الإمام مالك رضي الله عنهما.

فقد كان لكل واحد منهما منهاجه المستقل في الفقه والاجتهاد، بيد أن ذلك لم يكن بمانع لهما من الحوار الهادف والمناقشة المثمرة، مع التقدير المتبادل واحترام أحدهما للآخر.

ومن ذلك ما ذكره القاضي عياض في (المدارك) عن الإمام الليث بن سعد، قال:

لقيت مالكاً في المدينة فقلت له: إني أراك تمسح العرق عن جبينك.

قال: عرقت مع أبي حنيفة إنه لفقيه يا مصري. قال الليث: ثم لقيت أبا حنيفة، فقلت له ما أحسن قول ذلك الرجل فيك، «يشير إلى مالك».

فقال أبو حنيفة: ما رأيت أسرع منه بجواب صادق، وزهد تام.

وهكذا يتبين للباحث ما كان عليه الأئمة من نقاء في القلب، واحترام كل منهما للآخر حتى عند عدم وجوده [١].

ومن مظاهر أدب الحوار الإسلامي، ثناء أئمة المذاهب بعضهم على بعض، وذلك على النحو الآتي بيانه:

أولاً: الثناء على أبي حنيفة:

الإمام أبو حنيفة هو أسبق الأئمة المجتهدين، من حيث التاريخ، وقد أثنى على علمه وشخصه كثير من العلماء الذين اختلفت نوازعهم الفكرية ومناحيهم العلمية، بيد أنهم جميعاً اتفقوا على تقدير الإمام أبي حنيفة، والثناء عليه.

فمن ذلك ما ذكره معاصره الإمام الفضيل بن عياض، الذي اشتهر بالورع؛ إذ قال: كان أبو حنيفة رجلًا فقيهاً معروفاً بالفقه، واسع المال معروفاً بالإفضال على كل من يضيف به، صبوراً على تعلم العلم بالليل والنهار، حسن الدل، كثير الصمت، قليل الكلام حتى ترد مسألة في حلال أو حرام،

---

(١) ترتيب المدارك، للقاضي عياض ص (١٣١) . ط دار مكتبة الحياة بيروت.

فكان يحسن أن يدل على الحق.

وروى الخطيب عن الإمام الشافعي قال: قيل للإمام مالك بن أنس: هل رأيت أبا حنيفة؟ قال: نعم. رأيت رجلًا لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته.

وروى الخطيب عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الإمام الشافعي يقول: الناس عيال على أبي حنيفة في الفقه.

وقد يتعذر إحصاء أقوال معاصريه، الذين أثنوا عليه.. ولعل أبلغ تلك الأوصاف ما ذكره عبد الله بن المبارك، حيث قال: كان منح العلم، فهو قد أصاب من العلم اللباب، ووصل فيه إلى أقصى مداه، كان يستبطن المسائل، ويستنكه كنهها، ويتعرف أصولها، ويبني عليها.

ثانيا: الثناء على الإمام مالك:

قال الإمام الشافعي: إذا جاءك الحديث عن مالك فشد به يديك، وقال: إذا جاء الخبر فمالك النجم، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم، وقال: مالك بن أنس معلمي وعنه أخذت العلم.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: مالك بن أنس أحسن حديثاً عن الزهري من ابن عيينة.

وفي سعة صدره لقبول الآخر يروى عنه:

قال لي الخليفة المهدي: يا أبا عبد الله ضع لي كتاباً أحمل الأمة عليه.

فقلت: يا أمير المؤمنين أما هذا السقع، وأشار إلى المغرب فقد كفيتكه.

وأما الشام: ففيهم الرجل الذي علمته، يعني الأوازعي.

وأما أهل العراق: فهم أهل العراق.

ولما حج أبو جعفر المنصور دعا الإمام مالكاً، وقال له: إني عزمت أن آمر

بكتبك هذه التي وضعتها - ويعني (الموطأ) - فتنسخ نسخاً، ثم أبعث بها إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة، وآمرهم أن يعملوا بما فيها، ولا يتعدوها إلى غيرها، ويدعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث، فإني رأيت أصل هذا العلم رواية أهل المدينة وعملهم.

قال فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم وعملوا به، ودانوا به من اختلاف أصحاب رسول الله وغيرهم، وإن ردهم إلى ما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم، فقال: لعمري لو طاوعتني على ذلك لأمرت به.

ثالثًا: الثناء على الإمام الشافعي:

قال الإمام أحمد بن حنبل: ما أحد من أصحاب الحديث، حمل محبرة إلا وللشافعي عليه منة، وقال: ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو فيها للشافعي.

ومن تواضعه قوله: وددت أن الخلق يعلمون ما في هذه الكتب على ألا ينسبوا إلي منها شيئاً - يعني ما وضع من كتبه.

رابعًا: الثناء على الإمام أحمد بن حنبل:

كان يقول له شيخه الشافعي: أنت أعلم بالأخبار الصحاح منا، فإذا كان خبر صحيح فأعلمني حتى أذهب إليه، كوفيًا كان أو مصريًا أو شاميًا، ولقد روى المزني أن الشافعي قال: ثلاثة من عجائب الزمان:

- عربي لا يعرب كلمة، وهو أبو ثور.
- وأعجمي لا يخطئ في كلمة، وهو الحسن الزعفراني.
- وصغير كلما قال شيئاً صدقه الكبار، وهو أحمد بن حنبل.

-وقال قرينه ومعاصره القاسم بن سلام: انتهى العلم إلى أربعة: أحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، ويحيى بن معين، وأبي بكر بن أبى شيبة، وأحمد أفقههم فيه.

ويقول فيه: ما رأيت رجلًا أعلم بالسنة منه.

وقال فيه يحيى بن معين: والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد، ولا على طريقة أحمد.

وقد حافظ علماء السلف - رضي الله عنهم - جميعًا على المودة والأخوة فيما بينهم، فلم يكن اختلافهم في الآراء الفقهية، والمسائل الأصولية سببًا في جفاء بعضهم لبعض، بل كان يجمع بينهم دائماً الدين والمودة والتقوى والأخوة، والرغبة الأصيلة في الاهتداء إلى الحق، وإليك أيها القارئ الكريم نماذج من اختلاف الرأي بين العلماء، مع بقاء المودة والاحترام المتبادل.

جاء في سير أعلام النبلاء، عن الإمام الحافظ أبي موسى يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري- أحد أصحاب الإمام الشافعي- أنه قال:

ما رأيت أحدًا أعقل من الإمام الشافعي. . ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى. . ألا يستقيم أن نكون إخواناً، وإن لم نتفق في مسألة. ا هـ.

وجاء في جامع بيان العلم في باب إثبات المناظرة، وإقامة الحجة. . عن عبد العظيم العنبري قال: كنت عند أحمد بن حنبل، وجاءه علي بن المديني، راكباً على دابة، قال: فتناظرا في الشهادة، وارتفعت أصواتهما، حتى خفت أن يقع بينهما جفاء، وكان أحمد يرى الشهادة، وعلي يأبى ويدفع، فلما أراد علي الانصراف قام أحمد فأخذ بركابه.

وجاء عن ابن أبي مسلمة قال: رأيت أبا حنيفة ومالك بن أنس، في مسجد رسول الله ﷺ بعد صلاة العشاء الآخرة، وهما يتذاكران ويتدارسان حتى وقف

أحدهما على القول الذي قال به صاحبه، أمسك الآخر من غير تعنيف ولا تمعر ولا تخطئة، حتى يصليا الغداة في محلهما ذلك.

هذا، وقد قال الإمام مالك: إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فتح الله له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد. فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فتح الله لي فيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: المسلمون متفقون على جواز صلاة بعضهم خلف بعض، ومن أنكر ذلك فهو مبتدع ضال، مخالف للكتاب والسنة وإجماع المسلمين، وقد كان في الصحابة والتابعين ومن بعدهم من يقرأ بالبسملة، ومنهم من لا يقرأ بها، ومع هذا فقد كان بعضهم يصلي خلف بعض، مثل ما كان أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وغيرهم يصلون خلف أئمة المدينة من المالكية، وإن كانوا لا يقرءون لا سرًا ولا جهرًا، وصلى أبو يوسف خلف الرشيد، وقد احتجم، وأفتاه مالك بعدم وجوب الوضوء، فصلى خلفه أبو يوسف ولم يعد.. وكان أحمد يرى الوضوء من الحجامة والرعاف، فقيل له: فإن كان إمامي قد خرج منه الدم، ولم يتوضأ أصلي خلفه؟ فقال: كيف لا تصلي خلف سعيد بن المسيب ومالك؟!

وفيما يلي نسوق نصًا مهمًا للإمام الذهبي، عبارة عن ترجمته للإمام محمد ابن حزم، في سير أعلام النبلاء، يبين في وضوح أن عدم التزام العالم أدب الخطاب، مع الأئمة المخالفين له وخيم العاقبة عليه، فقد هجر العلماء ابن حزم وأعرضوا عن تصانيفه، ونفروا منها بعد أن فجج العبارة، وأغلظ القول.

نورد هنا سطوراً، من ترجمة العلامة أبي محمد بن حزم الأندلسي، المتوفي سنة ٤٥٦، من كتاب «سير أعلام النبلاء» و «تذكرة الحفاظ» للحافظ الذهبي، ففيها فوائد تتعلق بهذا المقام، وفيها أيضاً عبرة بالغة، لمن تعود

إساءة الأدب مع أئمة الأمة، وعلماء الملة، إذا تأمل فيما آل إليه حال ابن حزم- على جلالة قدره، وسعة علمه - من الهجر والانتقاد؛ لأجل عدم مراعاته أدب الاختلاف مع الأئمة السابقين.

قال الذهبي رحمه الله تعالى: «قيل: إنه - أي ابن حزم - تفقه أولًا للشافعي، وأداه اجتهاده إلى القول بنفي القياس كله، جليه وخفيه، والأخذ بظاهر النص، وعموم الكتاب والحديث، والقول بالبراءة الأصلية، واستصحاب الحال، وصنف في ذلك كتباً كثيرة، وناظر عليه، وبسط لسانه وقلمه، ولم يتأدب مع الأئمة في الخطاب، بل فجج العبارة، أي أغلظها، وسب وجدع، أي قبح؛ فكان جزاؤه من جنس فعله، بحيث إنه أعرض عن تصانيفه جماعة من الأئمة، وهجروها ونفروا منها، وأحرقت في وقت، واعتنى بها آخرون من العلماء، وفتشوها انتقاداً واستفادة وأخذاً ومؤاخذه، ورأوا فيها الدر الثمين ممزوجاً في الرصف بالخرز المهين، فتارة يطربون، ومرة يعجبون، ومن تفرده يهزءون، وفي الجملة فالكمال عزيز، وكل واحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ.

وكان ينهض بعلوم جمة، ويجيد النقل، ويحسن النظم والنثر، وفيه دين وخير، ومقاصده جميلة، ومصنفاته مفيدة، وقد زهد في الرياسة، ولزم منزله مكبًا على العلم، فلا نغلو فيه، ولا نجفو عنه، وقد أثنى عليه قبلنا الكبار.

وقد امتحن هذا الرجل - ابن حزم - وشدد عليه - وشرد عن وطنه، وجرت له أمور، وقام عليه الفقهاء لطول لسانه واستخفافه بالكبار، ووقوعه في أئمة الاجتهاد بأفج عبارة، وأفظ محاورة، وأبشع رد، وجرى بينه وبين أبي الوليد الباجي مناظرة ومنافرة، قال أبو العباس بن العريف: كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين.

قال الذهبي: ولي أنا ميل إلى أبي محمد - ابن حزم - لمحبته في الحديث

الصحيح ومعرفته به، وإن كنت لا أوافقه في كثير مما يقوله في الرجال والعلل، والمسائل البشعة في الأصول والفروع، وأقطع بخطئه في غير ما مسألة، ولكن لا أكفره ولا أضلله، وأرجو له العفو والمسامحة وللمسلمين، وأخضع لفرط ذكائه، وسعة علومه» انتهى كلام الحافظ الذهبي.

أرأيت أيها القارئ الكريم إلى عاقبة الوقوع في الأئمة، وإساءة الأدب معهم مع حسن النية، وجميل القصد، فكيف بمن طعن في الأئمة، وأهان مكانتهم عن خبث نية، وفساد طوية.

وانظر كذلك إلى موقف الإمام الذهبي من ابن حزم حيث لم يمنعه إنكاره على ابن حزم وقوعه في العلماء، ومخالفته إياه في غير مسألة في الأصول والفروع أن يشهد له بسعة العلم، وفرط الذكاء، فصرح قائلًا: ولكن لا أكفره ولا أضلله، وقال: وأقطع بخطئه في غير ما مسألة.

هذا هو الأدب الرفيع في الحوار والاختلاف.

وما سبق يبين بوضوح أن الاختلاف قد حصل في عصر التابعين ومن بعدهم، وأن سيماهم في الاختلاف هو التزام الأدب، وحسن الخلق، وعدم التكلم إلا بعلم، ومع هذا فقد يشتد الخلاف بين بعض التابعين، بل يشتد أحياناً بين الأفاضل والأئمة من التابعين، حتى يكون من جنس كلام الأقران الذي يطوى فلا يروى، ويرد فلا يقبل، ومن ذلك قول الإمام أحمد بن حنبل: بلغ ابن أبي ذئب أن مالكاً لم يأخذ بحديث «البيعان بالخيار»، فقال: يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، ثم قال أحمد: هو أورع، وأقول بالحق من مالك.

قال الذهبي بعد ذكره لهذه القصة: «قلت: لو كان ورعاً كما ينبغي، لما قال هذا الكلام القبيح في حق إمام عظيم، فمالك إنما لم يعمل بظاهر الحديث؛ لأنه رآه منسوخاً، وقيل: عمل به، وحمل قوله «حتى يتفرقا» على التلفظ

بالإيجاب والقبول، فمالك في هذا الحديث وفي كل حديث له أجر ولا بد، فإن أصاب ازداد أجرًا آخر، وإنما يرى السيف على من أخطأ في اجتهاده الحرورية، وبكل حال فكلام الأقران بعضهم في بعض لا يعول على كثير منه، فلا نقصت جلالة مالك بقول ابن أبي ذئب، ولا ضعف العلماء ابن أبي ذئب بمقالته هذه، بل هما عالما المدينة في زمانهما- رضي الله عنهما- ولم يسندها الإمام أحمد؛ فلعلها لم تصح»[1].

الإمام الغزالي وقواعد الجدل وآدابه:

عني الإمام رحمه الله في سفره القيم «إحياء علوم الدين» بالتحذير من الخلاف والمناظرة والجدال لا يريد به المتصدي له إلا الظهور على خصمه وإفحامه والإتيان على حجة مخالفه وبرهانه، وتقرير حجته هو ودليله، وفي الوقت نفسه نجد الغزالي قد قرر في وضوح ضوابط الجدال المحمود، وأصل قواعد تأصيلًا ممتازاً، سداه ولحمته الرغبة في الاهتداء إلى الحق ودرك الصواب؛ إرضاءً لله عز وجل ونفعاً للمسلمين، ولا ريب أن صنيع الإمام الغزالي في هذا الباب يعكس بوضوح الرغبة في التزام آداب المنهج الإسلامي في الحوار والاختلاف، كما التزمها الصحابة رضوان الله عليهم، ومن بعدهم التابعون وتابعو التابعين من الأئمة والعلماء؛ ولذا فإن حديث الغزالي هنا يعد في نظرنا إضافة ممتازة، وجانباً مهمًا من جوانب أدب الحوار في الإسلام، ولقد مهد الإمام الغزالي لذلك بحديثه عن الباعث وراء نشأة الخلاف، وظهور الجدل والمناظرة بين الفقهاء والعلماء، فقال:

«اعلم أن الخلافة بعد رسول الله ﷺ تولاها الخلفاء الراشدون المهديون، وكانوا أئمة علماء بالله تعالى، فقهاء في أحكامه، وكانوا مستقلين بالفتاوى في الأقضية، فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادراً في وقائع لا يستغنى فيها عن

---

(١) سير أعلام النبلاء (٧/١٤٢-١٤٣).

المشاورة، فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها، وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا، وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم، كما نقل من سيرهم، فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها بغير استحقاق، ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام، اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء، وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم؛ لاستفتائهم في مجاري أحكامهم، وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول، وملازم صفو الدين ومواظب على سمت علماء السلف، فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا، فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات، فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاة عليهم مع إعراضهم عنهم، فاشرأبوا لطلب العلم توصلا إلى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة، فأكبوا على علم الفتاوى، وعرضوا أنفسهم على الولاة، وتعرفوا إليهم، وطلبوا الولايات والصلات منهم، فمنهم من حرم ومنهم أنجح، والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال فأصبح الفقهاء - بعد أن كانوا مطلوبين - طالبين، وبعد أن كانوا أعزة - بالإعراض عن السلاطين - أذلة بالإقبال عليهم، إلا من وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله، وقد كان أكثر الإقبال في تلك الأعصار على علم الفتاوى والأقضية لشدة الحاجة إليها في الولايات والحكومات، ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد، ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها: فغلمت رغبته إلى المناظرة والمجادلة في الكلام، فأكب الناس على علم الكلام، وأكثروا فيه التصانيف، ورتبوا فيه طرق المجادلات، واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله، والنضال عن السنة، وقمع المبتدعة، كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين وتقلد أحكام المسلمين، إشفاقاً على خلق الله ونصيحة لهم. ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في

الكلام، وفتح باب المناظرة فيه، لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة، والخصومات الفاشية المفضية إلى إهراق الدماء، وتخريب البلاد، ومالت نفسه إلى المناظرة في الفقه، وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة، رضي الله عنهما، على الخصوص، فترك الناس الكلام وفنون العلم، وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص. وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد - رحمهم الله تعالى - وغيرهم، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع، وتقرير علل المذهب، وتمهيد أصول الفتاوى، وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات، وهم مستمرون عليه إلى الآن، ولسنا ندري ما الذي يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار؟ فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلافيات والمناظرات لا غير، ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة، أو إلى علم آخر من العلوم لمالوا أيضاً معهم، ولم يسكنوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين[١].

وقد لبس هؤلاء على الناس أمر هذه المناظرات والخلافيات، حين شبهوها بمشاورات الصحابة، ومفاوضات السلف، قال الغزالي: «اعلم أن هؤلاء قد يستدرجون الناس إلى ذلك، بأن غرضنا من المناظرات المباحثة عن الحق ليتضح فإن الحق مطلوب، والتعاون على النظير في العلم وتوارد الخواطر مفيد ومؤثر، هكذا كانت عادة الصحابة رضي الله عنهم - في مشاوراتهم، كتشاورهم في مسألة الجد والإخوة، وحد شرب الخمر، ووجوب الغرم على الإمام إذا أخطأ، كما نقل من إجهاض المرأة جنينها؛ خوفاً من عمر - رضي الله عنه - وكما نقل من مسائل الفرائض وغيرها، وما نقل عن الشافعي وأحمد ومحمد بن الحسن ومالك وأبي يوسف وغيرهم من العلماء، رحمهم

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٥٥).

الله تعالى[1]».

شروط الجدال المحمود أو الحوار المحمود:

وقد بيّن الإمام الغزالي أن الجدال المحمود والمناظرة المثمرة لهما شروط وآداب يجب توافرها، حتى يكونا من باب التعاون على طلب الحق، وهي ثمانية شروط:

الأول: ألا يشتغل به وهو من فروض الكفايات، من لم يتفرغ من فروض الأعيان، ومن عليه فرض عين فاشتغل بفرض كفاية وزعم أن مقصده الحق فهو كذاب. ومثاله من يترك الصلاة في نفسه، ويتجرد في تحصيل الثياب ونسجها ويقول غرضي استر عورة من يصلي عرياناً ولا يجد ثوباً، فإن ذلك ربما يتفق ووقوعه ممكن كما يزعم الفقيه أن وقوع النوادر التي عنها البحث في الخلاف ممكن. والمشتغلون بالمناظرة مهملون لأمور هي فرض عين بالاتفاق، ومن توجه عليه رد وديعة في الحال فقام وأحرم بالصلاة، التي هي أقرب القربات إلى الله تعالى عصى به، فلا يكفي في كون الشخص مطيعاً، كون فعله من جنس الطاعات، ما لم يراع فيه الوقت والشروط والترتيب.

الثاني: ألا يرى فرض كفاية أهم من المناظرة، فإن رأى ما هو أهم وفعل غيره عصى بفعله، وكان مثاله مثال من يرى جماعة من العطاش أشرفوا على الهلاك، وقد أهملهم الناس وهو قادر على إحيائهم، بأن يسقيهم الماء فاشتغل بتعلم الحجامة، وزعم أنه من فروض الكفايات، ولو خلا البلد عنها لهلك الناس، وإذا قيل له في البلد جماعة من الحجامين وفيهم غنية، فيقول: هذا لا يخرج هذا الفعل عن كونه فرض كفاية. فحال من يفعل هذا، ويهمل الاشتغال بالواقعة الملمة بجماعة العطاش من المسلمين، كحال المشتغل بالمناظرة وفي البلد فروض كفايات مهملة لا قائم بها، فأما الفتوى فقد قام بها جماعة، ولا

(١) السابق (١/ ٥٦).

يخلو بلد من جملة الفروض المهملة، ولا يلتفت الفقهاء إليها وأقربها الطب؛ إذ لا يوجد في أكثر البلاد طبيب مسلم يجوز اعتماد شهادته فيما يعول فيه على قول الطبيب شرعاً، ولا يرغب أحد من الفقهاء في الاشتغال به، وكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو من فروض الكفايات، وربما يكون المناظر في مجلس مناظرته مشاهداً للحرير ملبوساً ومفروشاً، وهو ساكت ويناظر في مسألة لا يتفق وقوعها قط، وإن وقعت قام بها جماعة من الفقهاء، ثم يزعم أنه يريد أن يتقرب إلى الله تعالى بفروض الكفايات.

الثالث: أن يكون المناظر مجتهداً، يفتي برأيه لا بمذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما، حتى إذا ظهر له الحق من مذهب أبي حنيفة، ترك ما يوافق رأي الشافعي، وأفتى بما ظهر له كما كان يفعله الصحابة - رضي الله عنهم - والأئمة. فأما من ليس له رتبة الاجتهاد، وهو حكم كل أهل العصر، وإنما يفتي فيما يسأل عنه، ناقلًا عن مذهب صاحبه فلو ظهر له ضعف مذهبه لم يجز له أن يتركه، فأي فائدة له في المناظرة، ومذهبه معلوم، وليس له الفتوى بغيره؟ وما يشكل عليه يلزمه أن يقول: لعل عند صاحب مذهبي جواباً عن هذا فإني لست مستقلًا بالاجتهاد في أصل الشرع، ولو كانت مباحثه عن المسائل التي فيها وجهان أو قولان لصاحبه لكان أشبه، فإنه ربما يفتي بأحدهما فيستفيد من البحث، ميلًا إلى أحد الجانبين، ولا يرى المناظرات جارية فيها قط، بل ربما ترك المسألة التي فيها وجهان أو قولان، وطلب مسألة يكون الخلاف فيها مبتوتاً.

الرابع: ألا يناظر إلا في مسألة واقعة أو قريبة الوقوع غالباً، فإن الصحابة رضي الله عنهم ما تشاوروا إلا فيما تجدد من الوقائع، أو ما يغلب وقوعه كالفرائض، ولانرى المناظرين يهتمون بانتقاد المسائل التي تعم البلوى بالفتوى فيها، بل يطلبون الطبوليات التي تسمع، فيتسع مجال الجدل فيها كيفما كان الأمر، وربما يتركون ما يكثر وقوعه، ويقولون هذه مسألة خبرية،

أو هي من الزوايا وليست من الطبوليات، فمن العجائب أن يكون المطلب هو الحق، ثم يتركون المسألة لأنها خبرية، ومدرك الحق فيه هو الإخبار! أو لأنها ليست من الطبول، فلا نطول فيها الكلام. والمقصود في الحق أن يقصر الكلام ويبلغ الغاية على القرب لا أن يطول.

الخامس: أن تكون المناظرة في الخلوة أحب إليه وأهم من المحافل، وبين أظهر الأكابر والسلاطين، فإن الخلوة أجمع للفهم، وأحرى بصفاء الذهن والفكر ودرك الحق، وفي حضور الجمع ما يحرك دواعي الرياء، ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه، محقًّا كان أو مبطلًا، وأنت تعلم أن حرصهم على المحافل والمجامع ليس لله، وأن الواحد منهم يخلو بصاحبه مدة طويلة فلا يكلمه، وربما يقترح عليه فلا يجيب، وإذا ظهر مقدم أو انتظم مجمع لم يغادر في قوس الاحتيال منزعاً، حتى يكون هو المتخصص بالكلام.

السادس: أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة، لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه، ويرى رفيقه معيناً لا خصماً، ويشكره إذا عرفه الخطأ، وأظهر له الحق، كما لو أخذ طريقاً في طلب ضالته، فنبهه صاحبه على ضالته في طريق آخر فإنه كان يشكره ولا يذمه، ويكرمه ويفرح به، فهكذا كانت مشاورات الصحابة - رضي الله عنهم - حتى إن امرأة ردت على عمر - رضي الله عنه - ونبهته على الحق، وهو في خطبته على ملأ من الناس، فقال: أصابت امرأة وأخطأ رجل. وسأل رجل عليًا - رضي الله عنه - فأجابه فقال: ليس كذلك يا أمير المؤمنين؛ ولكن كذا وكذا فقال: أصبت وأخطأتُ، وفوق كل ذي علم عليم. واستدرك ابن مسعود على أبي موسى الأشعري - رضي الله عنهما - فقال أبو موسى: لا تسألوني عن شيء وهذا الحبر بين أظهركم، وذلك لما سئل أبو موسى عن رجل قاتل في سبيل الله فقتل، فقال: هو في الجنة. وكان أمير الكوفة، فقام ابن مسعود فقال:

أعده على الأمير فلعله لم يفهم؟ فأعادوا عليه فأعاد الجواب فقال ابن مسعود: وأنا أقول إن قتل فأصاب الحق فهو في الجنة، فقال أبو موسى: الحق ما قال، وهكذا يكون إنصاف طالب الحق ولو ذكر مثل هذا الآن لأقل فقيه لأنكره واستبعده، وقال: لا يحتاج إلى أن يقال أصاب الحق، فإن ذلك معلوم لكل واحد. فانظر إلى مناظري زمانك اليوم، كيف يسود وجه أحدهم إذا اتضح الحق على لسان خصمه، وكيف يخجل به، وكيف يجهد في مجاحدته بأقصى قدرته، وكيف يذم من أفحمه طول عمر، ثم لا يستحي من تشبيه نفسه بالصحابة - رضي الله عنهم - في تعاونهم على النظر في الحق؟

السابع: ألا يمنع معينه في النظر من الانتقال من دليل إلى دليل، ومن إشكال إلى إشكال، فهكذا كانت مناظرات السلف: ويخرج من كلامه جميع دقائق الجدل المبتدعة، فيما له وعليه كقوله: هذا لا يلزمني ذكره، وهذا يناقض كلامك الأول، فلا يقبل منك، فإن الرجوع إلى الحق مناقض للباطل، ويجب قبوله. وأنت ترى أن جميع المجالس تنقضي في المدافعات والمجادلات، حتى يقيس المستدل على أصل بعلة يظنها، فيقال له: ما الدليل على أن الحكم في الأصل معلل بهذه العلة؟ فيقول: هذا ما ظهر لي، فإن ظهر لك ما هو أوضح منه وأولى فاذكره حتى أنظر فيه. فيصر المعترض، ويقول فيه معان سوى ما ذكرته وقد عرفتها ولا أذكرها إذ لا يلزمني ذكرها، ويقول المستدل: عليك إيراد ما تدعيه وراء هذا، ويصر المعترض على أنه لا يلزمه ويتوخى مجالس المناظرة بهذا الجنس من السؤال وأمثاله، ولا يعرف هذا المسكين أن قوله: إني أعرفه ولا أذكره إذ لا يلزمني، كذب على الشرع: فإنه إن كان لا يعرف معناه وإنما يدعيه ليعجز خصمه فهو فاسق كذاب عصى الله وتعرض لسخطه بدعواه معرفة هو خال عنها، وإن كان صادقاً فقد فسق بإخفائه ما عرفه من أمر الشرع وقد سأله أخوه المسلم ليفهمه وينظر فيه، فإن كان قويًّا رجع إليه، وإن كان ضعيفاً أظهر له ضعفه وأخرجه عن ظلمة الجهل

إلى نور العلم. ولا خلاف أن إظهار ما علم من علوم الدين بعد السؤال عنه واجب لازم، فمعنى قوله: لا يلزمني، أي في شرع الجدل الذي أبدعناه بحكم التشهي والرغبة في طريق الاحتيال والمصارعة بالكلام لا يلزمني، وإلا فهو لازم بالشرع، فإنه بامتناعه عن الذكر إما كاذب وإما فاسق، فتفحص عن مشاورات الصحابة ومفاوضات السلف - رضي الله عنهم - هل سمعت فيها ما يضاهي هذا الجنس، وهل منع أحد من الانتقال من دليل إلى دليل، ومن قياس إلى أثر، ومن خبر إلى آية؟ بل جميع مناظراتهم من هذا الجنس؛ إذ كانوا يذكرون كل ما يخطر لهم كما يخطر وكانوا ينظرون فيه.

الثامن: أن يناظر من يتوقع الاستفادة منه ممن هو مشتغل بالعلم. والغالب أنهم يحترزون من مناظرة الفحول والأكابر؛ خوفاً من ظهور الحق على ألسنتهم؛ فيرغبون فيمن دونهم طمعاً في ترويج الباطل عليهم.

ووراء هذه شروط دقيقة كثيرة، ولكن في هذه الشروط الثمانية ما يهديك إلى من يناظر لله ومن يناظر لعلة. واعلم بالجملة أن من لا يناظر الشيطان وهو مستولٍ على قلبه وهو أعدى عدو له ولا يزال يدعوه إلى هلاكه ثم يشتغل بمناظرة غيره في المسائل التى المجتهد فيها مصيب، أو مساهم للمصيب في الأجر، فهو ضحكة الشيطان وعبرة للمخلصين؛ ولذلك شمت الشيطان به؛ لما غمسه فيه من ظلمات الآفات التي نعددها ونذكر تفاصيلها، فنسأل الله حسن العون والتوفيق[(١)].

ويلاحظ - هنا - أن الإمام الغزالي لا يفرق بين الجدال والمناظرة، فهما لديه بمعنى واحد، والجامع بينهما أنهما ضربان من ضروب الحوار، وفنان من فنونه.

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٥٦-٥٨).

آفات الجدال المذموم:

ومراد الإمام الغزالي من الجدال المذموم، هو ذلك الجدال الموضوع لقصد الغلبة والإفحام وإظهار الفضل والشرف والتشدق عند الناس، وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس.

والجدال بهذا المعنى منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله، المحمودة عند عدو الله إبليس، ونسبة المناظرة المذمومة إلى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الجاه كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنى والقذف والقتل والسرقة.

وقد ذكر الغزالي - رحمه الله - ما يورثه الجدال - بمعنى المناظرة- المذموم من آفات الأخلاق فقال:

فمنها الحسد، ولا ينفك المناظر عن الحسد، فإنه تارة يغلب وتارة يغلب، وتارة يحمد كلامه وأخرى يحمد كلام غيره، فما دام يبقى في الدنيا واحد يذكره بقوة العلم والنظر، أو يظن أنه أحسن منه كلامًا وأقوى نظرًا؛ فلا بد أن يحسده ويحب زوال النعم عنه، وانصراف القلوب والوجوه عنه إليه. والحسد نار محرقة فمن بلي به فهو في العذاب في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأعظم، ولذلك قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: خذوا العلم حيث وجدتموه، ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض؛ فإنهم يتغايرون كما تتغاير التيوس في الزريبة.

ومنها التكبر والترفع على الناس، فقد قال ﷺ: «من تكبر وضعه الله ومن تواضع رفعه الله»(١)، وقال ﷺ حكاية عن - الله تعالى- : «العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته»(٢)، ولا ينفك المناظر عن التكبر

---

(١) ينظر: اتحاف الساده (١/ ٢٩٥).
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٢) وأصله فى صحيح مسلم (١٣٦/ ٢٦٢٠).

على الأقران والأمثال والترفع إلى فوق قدره؛ حتى إنهم ليتقاتلون على مجلس من المجالس يتنافسون فيه في الارتفاع والانخفاض، والقرب من وسادة الصدر والبعد منها، والتقدم في الدخول عن مضايق الطرق، وربما يتعلل الغبي والمكار الخداع منهم بأنه يبغي صيانة عز العلم، وأن المؤمن منهي عن الإذلال لنفسه.

فعبر عن التواضع الذي أثنى الله عليه وسائر أنبيائه بالذل، وعن التكبر الممقوت عند الله بعز الدين تحريفاً للاسم وإضلالاً للخلق به، كما فعل في اسم الحكمة والعلم وغيرهما.

ومنها الحقد فلا يكاد المناظر يخلو عنه، وقد قال ﷺ: «المؤمن ليس بحقود»، وورد في ذم الحقد ما لا يخفى، ولا ترى مناظرًا يقدر على ألَّا يضمر حقدًا على من يحرك رأسه من كلام خصمه، ويتوقف في كلامه فلا يقابله بحسن الإصغاء، بل يضطر إذا شاهد ذلك إلى إضمار الحقد وتربيته في نفسه، وغاية تماسكه الإخفاء بالنفاق ويترشح منه إلى الظاهر - لا محالة - في غالب الأمر، وكيف ينفك عن هذا، ولا يتصور اتفاق جميع المستمعين على ترجيح كلامه واستحسان جميع أحواله في إيراده وإصداره؟ بل لو صدر من خصمه أدنى سبب فيه قلة مبالاة بكلامه، انغرس في صدره حقد لا يقلعه مدى الدهر إلى آخر العمر.

ومنها الغيبة، وقد شبهها الله بأكل الميتة، ولا يزال المناظر مثابرًا على أكل الميتة؛ فإنه لا ينفك عن حكاية كلام خصمه ومذمته، وغاية تحفظه أن يصدق فيما يحكيه عليه ولا يكذب في الحكاية عنه، فيحكى عنه لا محالة - ما يدل على قصور كلامه، وعجزه، ونقصان فضله، وهو الغيبة.

فأما الكذب، فبهتان، وكذلك لا يقدر على أن يحفظ لسانه عن التعرض لعِرض من يُعرِض عن كلامه، ويصغى إلى خصمه ويقبل عليه حتى ينسبه إلى

الجهل والحماقة وقلة الفهم والبلادة.

ومنها تزكية النفس، قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] وقيل لحكيم: ما الصدق القبيح؟ فقال: ثناء المرء على نفسه. ولا يخلو المناظر من الثناء على نفسه بالقوة والغلبة والتقدم على الأقران، ولا ينفك في أثناء المناظرة عن قوله: لست ممن يخفى عليه أمثال هذه الأمور، وأنا المتفنن في العلوم، والمستقل بالأصول وحفظ الأحاديث وغير ذلك مما يتمدح به تارة على سبيل الصلف، وتارة للحاجة إلى ترويج كلامه. ومعلوم أن الصلف مذمومًا شرعاً وعقلًا.

ومنها التجسس وتتبع عورات الناس، وقد قال تعالى ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ والمناظر لا ينفك عن طلب عثرات أقرانه، وتتبع عورات خصومه؛ حتى إنه ليخبر بورود مناظر إلى بلده، فيطلب من يخبر بواطن أحواله، ويستخرج بالسؤال مقابحه؛ حتى يعدها ذخيرة لنفسه في إفضاحه وتخجيله إذا مست إليه حاجة، حتى إنه ليستكشف عن أحوال صباه، وعن عيوب بدنه؛ فعساه يعثر على هفوة أو على عيب به من قرع أو غيره، ثم إذا أحس بأدنى غلبة من جهته عرض به إن كان متماسكًا، ويستحسن ذلك منه ويعد من لطائف التسبب ولا يمتنع عن الإفصاح به إن كان متبجحًا بالسفاهة والاستهزاء، كما حكى عن قوم من أكابر المناظرين المعدودين من فحولهم.

ومنها الفرح لمساءة الناس والغم لمسارهم ومن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه؛ فهو بعيد من أخلاق المؤمنين، فكل من طلب المباهاة بإظهار الفضل؛ يسره - لا محالة - ما يسوء أقرانه وأشكاله الذين يسامونه في الفضل، ويكون التباغض بينهم كما بين الضرائر، فكما أن إحدى الضرائر إذا رأت صاحبتها من بعيد ارتعدت فرائصها، واصفر لونها، فكذا ترى المناظر إذا رأى مناظرًا تغير لونه، واضطرب عليه فكره، فكأنه يشاهد شيطانًا ماردًا، أو سبعًا ضاريًا، فأين الاستئناس والاسترواح الذي كان يجري بين علماء الدين عند اللقاء، وما

نقل عنهم من المؤاخاة والتناصر والتساهم في السراء والضراء، حتى قال الشافعي - رضي الله عنه -: «العلم بين أهل الفضل والعقل رحم متصل»؟ فلا أدري كيف يدعي الاقتداء بمذهبه جماعة - صار العلم بينهم عداوة قاطعة، فهل يتصور أن ينسب الأنس بينهم مع طلب الغلبة والمباهاة؟ هيهات هيهات، وناهيك بالشر شرًا أن يلزمك أخلاق المنافقين، ويبرئك عن أخلاق المؤمنين والمتقين.

ومنها النفاق، فلا يحتاج إلى ذكر الشواهد في ذمه وهم مضطرون إليه، فإنهم يلقَون الخصوم ومحبيهم وأشياعهم، ولا يجدون بدًّا من التودد إليهم باللسان، وإظهار الشوق، والاعتداد بمكانهم وأحوالهم، ويعلم ذلك المخاطب وكل من يسمع منهم أن ذلك كذب وزور ونفاق وفجور، فإنهم متوددون بالألسنة، متباغضون بالقلوب، نعوذ بالله العظيم منه، فقد قال ﷺ: «إذا تعلم الناس العلم، وتركوا العمل وتحابوا بالألسن، وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا في الأرحام؛ لعنهم الله عند ذلك فأصمهم وأعمى أبصارهم»[1]. رواه الحسن، وقد صح ذلك بمشاهدة هذه الحالة.

ومنها الاستكبار عن الحق وكراهته، والحرص على المماراة فيه؛ حتى إن أبغض شيء إلى المناظر أن يظهر على لسان خصمه الحق؛ فيتشمر لجحده وإنكاره بأقصى جهده ويبذل غاية إمكانه في المخادعة والمكر والحيلة لدفعه حتى تصير المماراة فيه عادة طبعية، فلا يسمع كلامًا إلا وينبعث من طبعة داعية الاعتراض عليه؛ حتى يغلب ذلك على قلبه في أدلة القرآن وألفاظ الشرع، فيضرب البعض منها البعض، والمِراء في مقابلة الباطل محذور؛ إذ ندب رسول الله ﷺ إلى ترك المِراء بالحق على الباطل، قال ﷺ: «من ترك المراء وهو مبطل بنى الله له بيتًا في ربض الجنة ومن ترك المراء وهو محق

---

(١) ينظر: المغنى عن حمل الأسفار للعراقى (١/٤٧).

بنى الله له بيتًا في أعلى الجنة»[1] وقد سوى الله - تعالى - بين من افترى على الله كذبًا وبين من كذب بالحق فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ .

ومنها الرياء وملاحظة الخلق والجهد في استمالة قلوبهم وصرف وجوههم. والرياء هو الداء العضال الذي يدعو إلى أكبر الكبائر - كما سيأتي في كتاب الرياء - والمناظر لا يقصد إلا الظهور عند الخلق وانطلاق ألسنتهم بالثناء عليه.

فهذه عشر خصال من أمهات الفواحش الباطنة سوى ما يتفق لغير المتماسكين منهم من الخصام المؤدي إلى الضرب واللكم واللطم وتمزيق الثياب، والأخذ باللحى، وسب الوالدين، وشتم الأستاذين، والقذف الصريح، فإن أولئك ليسوا معدودين في زمرة الناس المعتبرين، وإنما الأكابر والعقلاء منهم هم الذين لا ينفكون عن هذه الخصال العشر، نعم قد يسلم بعضهم من بعضها مع من هو ظاهر الانحطاط عنه أي ظاهر الارتفاع عليه أو هو بعيد عن بلده وأسباب معيشته، ولا ينفك أحد منهم عنه مع أشكاله المقارنين له في الدرجة. ثم يتشعب من كل واحدة من هذه الخصال العشر عشر أخرى من الرذائل لم نطوّل بذكرها، وتفصيل آحادها مثل: الأنفة، والغضب، والبغضاء، والطمع، وحب طلب المال، والجاه للتمكن من الغلبة، والمباهاة، والأشر، والبطر، وتعظيم الأغنياء والسلاطين، والتردد إليهم، والأخذ من حرامهم، والتجمل بالخيول والمراكب، والثياب المحظورة، والاستحقار للناس بالفخر والخيلاء، والخوض فيما لا يعني، وكثرة الكلام، وخروج الخشية والخوف والرحمة من القلب، واستيلاء الغفلة عليه، لا يدري المصلي منهم في صلاته ما صلى وما الذي يقرأ، ومن الذي

(١) أخرجه الترمذي (٣/ ٥٣٠) أبواب البر والصلة، باب ما جاء في المراء (١٩٩٣).

يناجيه؟ ولا يحس بالخشوع من قلبه مع استغراق العمر في العلوم التي تعين في المناظرة، مع أنها لا تنفع في الآخرة من تحسين العبارة؛ وتسجيع اللفظ؛ وحفظ النوادر إلى غير ذلك من أمور لا تحصى. والمناظرون يتفاوتون فيها على حسب درجاتهم، ولهم درجات شتى ولا ينفك أعظمهم دينًا وأكثرهم عقلًا عن جمل من مواد هذه الأخلاق، وإنما غايته إخفاؤها، ومجاهدة النفس بها.

واعلم أن هذه الرذائل لازمة للمشتغل بالتذكير والوعظ أيضًا إذا كان قصده طلب القبول وإقامة الجاه ونيل الثروة والعزة، وهي لازمة أيضًا للمشتغل بعلم المذاهب والفتاوى إذا كان قصده القضاء وولاية الأوقاف والتقدم على الأقران. وبالجملة هي لازمة لكل من يطلب بالعلم غير ثواب الله - تعالى - في الآخرة؛ فالعلم لا يهمل العالم، بل يهلكه هلاك الأبد، أو يحييه حياة الأبد، ولذلك قال ﷺ: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة، عالم لا ينفعه الله بعلمه»(١) فلقد ضره مع أنه لم ينفعه، وليته نجا وهيهات هيهات، فخطر العلم عظيم، وطالبه طلب الملك المؤبد، والنعيم السرمد، فلا ينفك عن الملك أو الهُلْك، وهو كطالب الملك في الدنيا، فإن لم يتفق له الإصابة في الأموال، لم يطمع في السلامة مع الإذلال بل لا بد من لزوم أفضح الأحوال.

فإن قلت: في الرخصة في المناظرة فائدة وهي ترغيب الناس في طلب العلم؛ إذ لولا حب الرياسة لاندرست العلوم، فقد صدقت فيما ذكرته من وجه، ولكنه غير مفيد؛ إذ لولا الوعد بالكرة والصولجان واللعب بالعصافير؛ ما رغب الصبيان في المكتب، وذلك لا يدل على أن الرغبة فيه محمودة، ولولا حب الرياسة لاندرس العلم، ولا يدل ذلك على أن طالب الرياسة ناجٍ، بل هو من الذين قال ﷺ فيهم: «إن الله ليؤيّد هذا الدين بأقوام لا خلاق

---

(١) أخرجه الطبراني فى الصغيرة (١/ ١٨٢ - ١٨٣) والبيقهى فى اشعب (١٧٧٨).

لهم»[1] ، وقال ﷺ: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[2]، فطالب الرياسة في نفسه هالك، وقد يصلح بسببه غيره إن كان يدعو إلى ترك الدنيا، وذلك فيمن كان ظاهر حاله في ظاهر الأمر، ظاهر حال علماء السلف، ولكنه يضمر قصد الجاه، فمثاله مثال الشمع الذي يحترق في نفسه، ويستضيء به غيره، فصلاح غيره في هلاكه، فأما إذا كان يدعو إلى طلب الدنيا، فمثاله مثال النار المحرقة التي تأكل نفسها وغيرها، فالعلماء ثلاثة: إما مهلك لنفسه وغيره، وهم المصرحون بطلب الدنيا، والمقبلون عليها، وإما مسعد نفسه وغيره، وهم الداعون الخلق إلى الله - سبحانه - ظاهرًا وباطنًا، وإما مهلك نفسه مسعد غيره؛ وهو الذي يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا في ظاهره، وقصده في الباطن قبول الخلق وإقامة الجاه، فانظر من أيّ الأقسام أنت؟ ومن الذي اشتغلت بالاعتداد له؟ فلا تظن أن الله - تعالى - يقبل غير الخالص لوجهه - تعالى - من العلم والعمل.

وقد عرض الإمام الغزالي في موضع آخر من كتابه الإحياء لآفات اللسان أو الكلام، وعد منها الجدل والخصومة لا لشيء إلا للغلبة وإفحام الخصم، وهو الجدال المذموم الذي أشار إليه وحذر منه كما بينا، وفيما يلي نسوق للقارئ الكريم بعضًا مما قاله؛ إتمامًا للفائدة قال:

المِراء والجدال، وذلك منهي عنه، قال ﷺ: «لا تمار أخاك ولا تمازحه، ولا تعده موعدًا فتخلفه».

وقال ﷺ: «من ترك المِراء وهو محق، بني له بيت في أعلى الجنة، ومن ترك المراء وهو مبطل؛ بني له بيت في ربض الجنة»[3] وعن أم سلمة -

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٣).
(٢) أخرجه البخارى (٦/ ٢٩٤) كتاب الجهاد والسير، باب أن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر (٣٠٦٢)، ومسلم (١/ ١٠٥) كتاب الإيمان باب غلظ تحريم قتل الأنسان نفسه (١٧٨/ ١١١).
(٣) تقدم.

رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما عهد إليّ ربي، ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر، ملاحاة الرجال»[١]، وقال أيضًا: «ما ضل قوم بعد أن هداهم الله - تعالى - إلا أوتوا الجدل»[٢]، وقال أيضًا: «لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المِراء وإن كان محقًّا»[٣]، وقال أيضًا: «ستٌّ من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان: الصيام في الصيف، وضرب أعداء الله بالسيف، وتعجيل الصلاة في اليوم الدجن، والصبر على المصيبات، وإسباغ الوضوء على المكاره، وترك المراء وهو صادق»[٤]، وقال الزبير لابنه: لا تجادل الناس بالقرآن؛ فإنك لا تستطيعهم ولكن عليك بالسنّة. وقال عمر بن عبد العزيز - رحمة الله عليه -: مَن جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل. وقال مسلم بن يسار: إياكم والمراء؛ فإنه ساعة جهل العالم، وعندها يبتغي الشيطان زلته، وقيل: ما ضل قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدل. وقال مالك بن أنس - رحمة الله عليه -: ليس هذا الجدال من الدين في شيء. وقال أيضًا: المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن. وقال لقمان لابنه: يا بني لا تجادل العلماء فيمقتوك. وقال بلال بن سعد: إذا رأيت الرجل لجوجًا مماريًا معجبًا برأيه فقد تمت خسارته. وقال سفيان: لو خالفت أخي في رمانة، فقال: حلوة وقلت: حامضة - لسعي بي إلى السلطان. وقال أيضًا: صافِ من شئت ثم أغضبه بالمراء، فليرمينك بداهية تمنعك العيش. وقال ابن أبي ليلى: لا أماري صاحبي فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه. وقال أبو الدرداء: كفى بك إثمًا ألا تزال مماريًا. وقال ﷺ: «تكفير كل لحاء ركعتان»[٥]، وقال عمر - رضي الله عنه -: لا تتعلم العلم لثلاث ولا تتركه

(١) انظر اتحاف السادة المتقين (٧/ ٤٧٠).
(٢) أخرجه الترمذى (٥/ ٢٩٦) أبواب تفسير القرآن باب ومن سورة الزخرف حديث (٣٢٥٣).
(٣) انظر اتحاف السادة التقين (٧/ ٤٧٠).
(٤) انظر اتحاف السادة التقين (٧/ ٤٧٠).
(٥) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٨/ ١٧٥).

لثلاث. لا تتعلمه لتماري به، ولا لتباهي به، ولا لترائي به. ولا تتركه حياء من طلبه، ولا زهادة فيه، ولا رضا بالجهل منه. وقال عيسى - عليه السلام-: من كثر كذبه ذهب جماله، ومن لاحى الرجال سقطت مروءته، ومن كثر همه سقم جسمه، ومن ساء خلقه عذَّب نفسه. وقيل لميمون بن مهران: ما لك لا تترك أخاك عن قلى؟ قال: لأني لا أشاريه ولا أماريه، وما ورد في ذم المِراء والجدال أكثر من أن يحصى.

وحد المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه، إما في اللفظ، وإما في المعنى، وإما في قصد المتكلم. وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض. فكل كلام سمعته فإن كان حقًّا فصدق به، وإن كان باطلًا أو كذبًا ولم يكن متعلقًا بأمور الدين فاسكت عنه.

والطعن في كلام الغير تارة يكون في لفظه بإظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة، أو من جهة العربية، أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير. وذلك يكون تارة من قصور المعرفة، وتارة يكون بطغيان اللسان، وكيفما كان فلا وجه لإظهار خلله.

وأما في المعنى: فبأن يقول ليس كما تقول، وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا.

وأما في قصده، فمثل أن يقول: هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق، وإنما أنت فيه صاحب غرض، وما يجري مجراه، وهذا الجنس إن جرى في مسألة علمية، ربما خُصَّ باسم الجدل، وهو أيضًا مذموم، بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض الاستفادة لا على وجه العناد والنكارة، أو التلطف في التعريف لا في معرض الطعن.

وأما المجادلة، فعبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه، ونسبته إلى القصور والجهل فيه، وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحق من

جهة أخرى مكروهًا عند المجادل، يحب أن يكون هو المظهر له خطأ ليبين به فضل نفسه ونقص صاحبه، ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأثم به لو سكت عنه.

وأما الباعث على هذا، فهو الترفع بإظهار العلم والفضل، والتهجم على الغير بإظهار نقصه. وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها. أما إظهار الفضل: فهو من قِبل تزكية النفس، وهي من مقتضى ما في العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء، وهي من صفات الربوبية. وأما تنقيص الآخر، فهو من مقتضى طبع السبعية، فإنه يقتضي أن يمزق غيره ويقضمه ويصدمه ويؤذيه. وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان وإنما قوتهما المراء والجدال، فالمواظب على المراء والجدال مقوٍّ لهذه الصفات المهلكة، وهذا مجاوز حد الكراهة، بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير، ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهييج الغضب، وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل، ويقدح في قائله بكل ما يتصور له، فيثور الشجار بين المتماريين كما يثور الهراش بين الكلبين، يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه بما هو أعظم نكاية وأقوى في إفحامه وإلجامه (١).

وَبيِّنٌ أن الجدال الذي ينهي عنه الإمام الغزالي، ويحذر منه هو الجدال المذموم بالمعنى الذي أشرت إليه آنفًا.

وقد ذكر الإمام الغزالي - رحمه الله - علاج الجدال المذموم كآفة من آفات الأخلاق قائلًا:

وأما علاجه: فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله، والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره - كما سيأتي ذلك في كتاب ذم الكبر والعجب، وكتاب ذم الغضب - فإن علاج كل علة بإماطة سببها. وسبب المراء والجدال

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين (٣/١٢٦، ١٢٧).

ما ذكرناه، ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعًا حتى يتمكن من النفس، ويعسر الصبر عنه.

روي أن أبا حنيفة - رحمة الله عليه - قال لداود الطائي: لم آثرت الانزواء؟ قال: لأجاهد نفسي بترك الجدال، فقال: احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تتكلم، قال: ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشد علي منها. وهو كما قال؛ لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه يعسر عليه الصبر عند ذلك جدًا. ولذلك قال ﷺ: «من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتًا في أعلى الجنة»(١) لشدة ذلك على النفس، وأكثر ما يغلب ذلك في المذاهب والعقائد. فإن المراء طبع، فإذا ظن أن له عليه ثوابًا؛ اشتد عليه حرصه وتعاون الطبع والشرع عليه، وذلك خطأ محض، بل ينبغي للإنسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة، وإذا رأى مبتدعًا تلطف في نصحه في خلوة، لا بطريق الجدال، فإن الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه في التلبيس، وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا، فتستمر البدعة في قلبه بالجدل وتتأكد فإذا عرف أن النصح لا ينفع اشتغل بنفسه وتركه، وقال ﷺ: «رحِم الله من كفَّ لسانَه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه»(٢)، وقال هشام ابن عروة: كان - عليه السلام - يردد قوله هذا سبع مرات. وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه، ووجد لنفسه بسببه عزًّا وقبولًا، قويت فيه هذه المهلكات، ولا يستطيع عنها نزوعًا إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر، والرياء، وحب الجاه، والتعزز بالفضل. وآحاد هذه الصفات يشتد مجاهدتها فكيف بمجموعها؟(٣).

---

(١) تقدم.

(٢) ذكره الهندى في كنز العمال (١٠٧٩) وعزاه إلى ابن أبى الدنيا فى الصمت عن هشام ابن عروة معضلًا.

(٣) ينظر: إحياء علوم الدين (٣/ ١٢٧، ١٢٨).

الخصومة:

وقد ألحق الإمام الغزالي الخصومة بالجدال المذموم، وتعني الطعن في كلام الغير بإظهار الخلل فيه، بهدف تحقير الغير والتهوين من شأنه، حيث قال:

وهي أيضًا مذمومة، وهي وراء الجدال والمراء، فالمراء طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير. وإظهار مزية الكياسة، والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها، والخصومة لجاج في الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود، وذلك تارة يكون ابتداء، وتارة يكون اعتراضًا. والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق. فقد قالت عائشة - رضي الله عنها -: قال رسول الله ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»[1]، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «من جادل في خصومة بغير علم؛ لم يزل في سخط الله حتى ينزع»[2]، وقال بعضهم: إياك والخصومة؛ فإنها تمحق الدين. ويقال: ما خاصم ورع قط في الدين. وقال ابن قتيبة: مر بي بشر بن عبد الله بن أبي بكرة فقال: ما يجلسك هاهنا؟ قلت: خصومة بيني وبين ابن عم لي، فقال: إن لأبيك عندي يدًا، وإني أريد أن أجزيك بها، وإني - والله - ما رأيت شيئًا أذهب للدين، ولا أنقص للمروءة، ولا أضيع للذة، ولا أشغل للقلب من الخصومة قال: فقمت لأنصرف، فقال لي خصمي: ما لك؟ قلت: لا أخاصمك، قال: إنك عرفت أن الحق لي، قلت: لا، ولكن أكرم نفسي عن هذا. قال: فإني لا أطلب منك شيئًا، هو لك.

فإن قلت: فإذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أو في

---

(١) ذكره الهندى فى كنز العمال (٨٣٠٣) وعزاه إلى الخرائطى فى مساوى الأخلاق عن ابن الزبير.
(٢) انظر اتحاف السادة المتقين (٧/ ٤٧٤).

حفظه مهما ظلمه ظالم، فكيف يكون حكمه، وكيف تذم خصومته؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم، مثل وكيل القاضي، فإنه قبل أن يتعرف أن الحق في أي جانب هو، يتوكل في الخصومة من أي جانب كان، فيخاصم بغير علم، ويتناول الذي يطلب حقه، ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة، بل يظهر اللدد في الخصومة على قصد التسلط أو على قصد الإيذاء، ويتناول الذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحجة وإظهار الحق، ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال، وفي الناس من يصرح به، ويقول: إنما قصدي عناده وكسر عرضه، وإني إن أخذت منه هذا المال ربما رميت به في بئر ولا أبالي، وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جدًّا. فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج، على قدر الحاجة، ومن غير قصد عناد وإيذاء؛ ففعله ليس بحرام، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلًا؛ فإن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر، والخصومة توغر الصدر، وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب نُسِيَ المتنازَع فيه، وبقي الحقد بين المتخاصمين، حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه، ويحزن بمسرته، ويطلق اللسان في عرضه، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات، وأقل ما فيه تشويش خاطره حتى إنه في صلاته يشتغل بمحاجة خصمه؛ فلا يبقى الأمر على حد الواجب، فالخصومة مبدأ كل شر، وكذا المراء والجدال، فينبغي ألّا يفتح بابه إلا لضرورة، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جدًّا، فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم ولا تذم خصومته؛ إلا أنه كان مستغنيًا عن الخصومة فيما خاصم فيه؛ لأن عنده ما يكفيه فيكون تاركًا للأولى ولا يكون آثمًا، نعم، أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام، وما ورد فيه من

الثواب، إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار الموافقة، ولا خشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذي حاصله إما تجهيل وإما تكذيب، فإن من جادل غيره أو ماراه أو خاصمه فقد جهله أو كذبه؛ فيفوت به طيب الكلام. وقال: قال ﷺ: «يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام»[١]، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من سلَّم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام، وإن كان مجوسيًّا؛ إن الله - تعالى - يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾، وقال ابن عباس أيضًا: لو قال لي فرعون خيرًا لرددت عليه. وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفًا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنُها من ظاهرها أعدها الله - تعالى - لمن أطعم الطعام وألان الكلام»[٢]، وروي أن عيسى - عليه السلام - مر به خنزير فقال: مرَّ بسلام، فقيل: يا رُوح الله أتقول هذا لخنزير؟ فقال: أكره أن أعود لساني الشر. وقال نبينا عليه السلام: «الكلمة الطيبة صدقة»[٣]، وقال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة»[٤]. وقال عمر - رضي الله عنه -: البر شيء هين؛ وجه طليق وكلام لين. وقال بعض الحكماء: الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح.

وقال بعض الحكماء: كل كلام لا يسخط ربك إلا أنك ترضى به جليسك، فلا تكن به عليه بخيلًا، فإنه لعله يعوضك منه ثواب المحسنين.

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥/ ٢٠) وقال: وفيه عبد الله بن محمد العبادى ولم أعرفه وبقيه رجاله رجال الصحيح. قلت: ولم يزكر مخرجه فلعله سهو أو سقط.
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٣) بنحوه وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ١٩) وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وبقية رجاله ثقات.
(٣) أخرجه مسلم (٢/ ٦٩٩) كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (٥٦/ ١٠٠٩).
(٤) أخرجه البخارى (١٣/ ٢١٦) كتاب الرقاق باب من نوقش الحساب عذب (٦٥٤٠).

وهذا كله في فضل الكلام الطيب وتضاده الخصومةُ، والمراء، والجدال واللجاج، فإنه الكلام المستكره، الموحش، المؤذي للقلب، المنغص للعيش المهيج للغضب، الموغر للصدر، نسأل الله حسن التوفيق بمنّه وكرمه[1].

وهكذا يظهر لنا من خلال ما سبق أن الجدل نوعان:

أحدهما محمود، وهو الجدل الذي يكون لإظهار الحق ودرك الصواب، وفق القواعد والأسس والآداب التي حددها الإسلام، ودعا إلى التمسك بها في كل حوار وفي كل مناقشة. وهذا هو الجدال بالتي هي أحسن الذي حث عليه القرآن ودعا إليه غير مرة.

والثاني: مذموم، وهو الجدل الذي يكون في المخاصمة بالباطل والاستبداد بالرأي واتباع الهوى، والذي يقصد المجادل فيه تحقيق شهوة الانتصار على من يحاورهم بسوق البراهين الكاذبة، وقد نهى الإسلام عن هذا النوع من الجدل وحذر منه أشد التحذير، لما يثمره من الأخلاق المذمومة كالحسد والغضب والحقد ... وغير ذلك.

«وهذا الصنف إذا سلط ذلاقته على شئون الناس أساء، وإذا سلطها على حقائق الدين شوه جمالها، وأضاع هيبتها»[2].

❊ ❊ ❊

(١) إحياء علوم الدين (٣/١٢٨-١٢٩).
(٢) ينظر: محمد الغزالي، خلق المسلم، دار الدعوة (٧٢، ٧٣).

الفصل الخامس

الحوار الحضاري بين الإسلام والغرب

برزت على الساحة الثقافية في الآونة الأخيرة جملة مصطلحات متقاربة ومتداخلة تشير إلى موضوع واحد، ومن هذه المصطلحات، حوار الثقافات، وحوار الحضارات، وحوار الأديان، وحوار الإسلام والغرب، والحوار العربي الأوربي، وموضوع هذه المصطلحات كما ذكرنا واحد، هو الاتصال بين الحضارات، وتبادل الخبرات والمعارف فيما بينها، والوصول إلى صيغة مقبولة من الحوار بين الثقافات المتباينة، لا سيما بعد أن شهد العالم ثورة تقنية هائلة في ميدان الاتصالات، غدا معها أشبه بالقرية الصغيرة كما يقول المفكرون المحدثون.

وفي الحق أن مفهوم الحوار في الفكر السياسي والثقافي المعاصر من المفاهيم المستحدثة قريبة العهد بالتداول والاستخدام، ولعل مما يدل على جدة هذا المفهوم وحداثته، أن جميع المواثيق والعهود الدولية التي صدرت في الخمسين سنة الآخيرة بعد إنشاء منظمة الأمم المتحدة تخلو من الإشارة إلى لفظ الحوار، بينما تعتمد معاني إنسانية أخرى مثل التسامح، والتعاون، والتعايش، وإنماء العلاقات الودية بين الأمم، وتحقيق التعاون الدولي، والدفع بالرقي الاجتماعي قدمًا، والرفع من مستوى الحياة في جو من الحرية تعزيزًا للعمل الجماعي المشترك لما فيه الخير للإنسانية.

فليس الحوار من ألفاظ القانون الدولي، فهو لا يوجد له ذكر أصلًا في ميثاق الأمم المتحدة، ولا في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ولا في العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ولا في العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، ولا في إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي.

وعلى هذا الأساس، فإن الحوار مفهوم سياسي أيديولوجي ثقافي حضاري، وليس مفهومًا قانونيًا[1].

ومن المفارقات العجيبة في هذا السياق أنه برغم جدة مصطلح «الحوار الحضاري» أو ما يقاربه من مصطلحات أخرى تشير إلى المدلول نفسه، فإن الحوار نفسه بين الحضارات قديم قِدَم وجود الشعوب ذات الحضارات المتجاورة، بحيث كانت دائمًا تتبادل المعارف والخبرات والسلع وأنماط الحياة من سلوك، وملبس، ومأكل، وطرز عمارة وأثاث، وتستعير الألفاظ والعبارات، وتقاليد المجتمع؛ فتصبح جزءًا من مفردات لغاتها، وأساليب تعبيرها، وتدخل في نسيجها الاجتماعي؛ فتنمو بذلك الثقافات وتزدهر، ولولا تغاير الشعوب، واختلاف الحضارات ما كان لشيء من ذلك أن يحدث ومن أجل هذا خلقنا الله - سبحانه - شعوبًا وقبائل لنتعارف، ولو شاء - سبحانه - لجعلنا أمة واحدة، ولكن حكمته - عز وجل - اقتضت أن يخلقنا مختلفين، وأن نظل كذلك ربما من أجل هذا التعارف والتبادل والحوار. وحين كانت العلاقات تضطرب بين هذه الشعوب المختلفة، فتقوم بينهم الحروب، كان يحدث من خلالها الاتصال والتعارف والتبادل والتمازج؛ فتتحقق الأهداف نفسها بالوسائل المتناقضة[2].

أما في العصر الحديث، فقد اقترن ظهور مصطلح الحوار في الأدبيات السياسية والثقافية بتنامي حدة الأزمة بين المعسكرين السابقين بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفيتي السابق، فيما عرف - آنذاك - بالحرب الباردة، فكان الغرب ينادي بضرورة الحوار بين الأديان ثم بين الثقافات

---

(١) ينظر: عبد العزيز التويجري، الحوار والتفاعل الحضاري من منظور إسلامي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، المؤتمر الثامن سنة (١٩٩٦م)، ص (٨٢).

(٢) ينظر: ناصر الدين الأسد، الإسلام والتفاعل الحضاري، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - المؤتمر الثامن (٧١، ٧٢).

والحضارات، بينما كان الشرق بزعامة الاتحاد السوفيتي يدعو إلى التعايش السلمي بين الأمم والشعوب أصحاب الحضارات، ولكل مبرراته وغاياته.

وقد تطور هذا المفهوم للحوار في طبيعته وأهدافه عقب سقوط الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة، وتصاعد حدة الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب الأوربي الأمريكي، نتيجة تصادم الإرادتين، واختلاف المصالح، فأثمر ذلك الدعوةَ إلى الحوار بين الإسلام والغرب، تارة على المستوى الديني «الحوار الإسلامي المسيحي»، وتارة على المستوى السياسي «الحوار العربي الأوربي»، وتارة على المستوى الحضاري «الحوار الحضاري بين الإسلام والغرب».

وكان الغرب في كل الأحوال، وفي جميع الظروف هو صاحب المبادرة إلى هذا الحوار في أشكاله المتعددة، وبصيغه المتنوعة؛ سعيًا منه إلى أهداف رسمها، وإلى غايات حددها، يكتنفها جميعًا قدر من الغموض الذي لم تنفع وسيلة في إخفائه؛ لأننا هنا بإزاء دعوة صادرة من جهة تملك شروط القوة الاقتصادية، والنفوذ السياسي، والقدرة على صنع الحدث والتحكم في مساره، ومن هنا وجب التعامل مع الحوار في هذا الإطار بقدر كبير من الحيطة والحذر، والفطنة والتنبه(١).

وفي الاتجاه المعاكس، ظهر في الآونة الأخيرة من يذهب إلى أن الصراع هو أساس العلاقة التي تحكم الحضارات والثقافات المختلفة، ولا بد في النهاية من انتهاء هذا الصراع بغلبة حضارة وثقافة بعينها وسيادتهما على ما عداهما من ثقافات وحضارات.

وأبرز مثال على ذلك، تلك النظرية التي قررها المؤرخ الأمريكي ذو الأصل الياباني فوكوياما في كتابه: «نهاية التاريخ»، حيث رأى أن سقوط الاتحاد

(١) ينظر: الحوار والتفاعل الحضاري، عبد العزيز التويجري، (٨٣).

السوفيتي، وانتهاء الحرب الباردة إيذان ببدء مرحلة جديدة تسود فيها ثقافة النموذج الليبرالي الأمريكي على الثقافات الأخرى.

وفي الاتجاه نفسه سار الأمريكي - صمويل هانتنجتون في مقالته التي نشرها في مجلة «foreignaaris» تحت عنوان صراع الحضارات، حيث ذهب إلى أن تفكك الاتحاد السوفيتي قد أعقبه صراع عنيف بين الثقافات، وأن الثقافة الغربية بنموذجيها الأوربي والأمريكي تواجه في هذا الصراع الثقافة الإسلامية والكنفوشيوسية.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق: هل من الممكن إقامة لغة من الحوار المشترك بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية في خضم جو من عدم الثقة وسوء الظن المتبادل بين الحضارتين؟!

وللإجابة عن هذا السؤال لا بد إلى الإشارة أولًا - كما يقول د/ ناصر الدين الأسد - إلى أنه: «ربما كان من المفيد أن أشير - في مقدمات هذه الدراسة أيضًا - إلى أن البلاد الإسلامية والبلاد الأوربية تقسيمان جغرافيان - على تجاورهما بل تداخلهما - يمثلان عالمين مختلفين كل الاختلاف اصطلح على تسمية أحدهما بالعالم الأول، وتسمية الآخر بالعالم الثالث، ويفصل بينهما زمن يمتد ثلاثة قرون أو أكثر، فالعالم الأول قد ودَّع القرن العشرين وبدأ منذ حين يستقبل القرن الحادي والعشرين قبل مجيئه، في حين ينظر هذا العالم الأول إلى العالم الثالث- المقابل والمجاور له - على أنه لا يزال يعيش في القرون الوسطى الأوربية.

وللقرون والتقسيمات الزمانية بين أوربا والمسلمين مفهومان مختلفان: فالعصور الوسطى - التي هي عصور ظلام في أوربا - هي عصور نور وازدهار وحضارة عند المسلمين، وعصر النهضة وعصر التنوير، عند الأوربيين هما بدايات عصور التخلف والتراجع للمسلمين، وقد تسارع التقدم والارتقاء عند

الأوربيين منذ ذلك الحين، وتسارع التدني والتقهقر عند المسلمين في شتى أقطارهم. وهكذا أخذت الفجوة بين هذين العالمين في الاتساع إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه الآن بالرغم من بعض التشابه في مظاهر الحضارة والتقدم بينهما في الملبس، والمسكن، والمشرب، والمطعم، ووسائل التنقل، فهو تشابه يحمل في طياته بذور الاختلاف الكبير بين عالم مبدع منتج متطور، وعالم مستورد مستهلك لما يبدعه وينتجه ويطوره العالم الأول. وتحت هذه القشرة من التشابه يصطخب التباعد والتناقض والاختلاف.

ومع ذلك فإننا لا نعدم فريقًا من الباحثين يرون أن وراء هذا التطور في الحياة العلمية والتكنولوجيا في دول الاتحاد الأوربي بقايا واضحة من التمييز العرقي والديني، ومن العنف والإرهاب في التعبير عن هذا التمييز، ومن انتهاك الحريات العامة وحقوق الإنسان واستعمال معيارين مختلفين في النظرة إلى الموقف الواحد والحكم عليه. وهم يستشهدون على ذلك بما يجري بين الحكومة الإنجليزية وأيرلندا الشمالية، وما تقوم به الحكومة الفرنسية من التضييق على الحريات الدينية للمسلمين فيها، وما يفعله النازيون الجدد وبعض المتطرفين في ألمانيا من اضطهاد الأقليات العرقية والدينية، ومحاولات قتل أفرادها، وإحراقهم، وتدمير مساكنهم، وما حدث في البوسنة من التدمير والتطهير العرقي والاغتصاب . . . ولا يعدو أن يكون كل ذلك سوى أمثلة قليلة تغني عن الاستقصاء.

ويتبادل العالمان المخاوفَ والاتهامات؛ فلا تزال آثار غزو الشمال للجنوب تحز في النفوس، وتثير القلق. فمن الحروب الصليبية، إلى الاستعمار الأوروبي، إلى الاستعمار الجديد إلى مناصرة القوى الغاشمة والتدخل في الشئون الداخلية لأكثر دول هذا العالم الإسلامي، والطمع في ثرواتها، ومؤازرة أنظمة حكم معينة، وفرض أنظمة أخرى للمحافظة على مصالح دول الشمال. . . إلى غير ذلك من آثار هذه العلاقة المضطربة بين العالمين.

وللشمال - أو الاتحاد الأوربي - مخاوفه أيضًا، وهي مخاوف لها دويها الإعلامي، ولها علماء ومراكز بحوث وساسة يروجون لها، ويقترحون من وسائل مقاومتها ما يصبح خططًا استراتيجية تتبناها الحكومات. ويتمثل أهم هذه المخاوف في أمرين هما: هجرة عدد كبير من أهل الجنوب إلى دول الاتحاد الأوربي وتهديد ما يسمونه خطأ بالأصولية الإسلامية لتلك الدول[١].

ومع ذلك كله، يدعو البعض إلى ضرورة هذا الحوار، وإلى إمكانية إقامته؛ إذ لم يعد يكفي أن يقف المرء موقف الشاهد غير المبالي ولا موقف المتسامح السلبي، أو أن تكتفي الشعوب بأن تكون متجاورة بينها علاقات سلام، بل لا بد من موقف إيجابي من التفاهم وإقامة علاقات متداخلة تقوم على مصالح مشتركة، ولا بد كذلك، من بذل المحاولات الجادة لتفهم الآخر دون أن يعني ذلك تطابق الآراء والاتجاهات جميعها، أو الموافقة عليها فالحوار يعني- شأنه في ذلك شأن التعددية - احتفاظ كل فريق بسماته وخصائصه، وإلا انتهى معنى التواصل والتعددية.

مراحل العلاقة الثقافية بين الإسلام والغرب:

لقد مر الحوار الثقافي الحضاري بين الإسلام والغرب بثلاث مراحل متعاقبة ذكرها د/ محمود حمدي زقزوق إجمالًا، على النحو الآتي:

(أ) المرحلة الأولى:

تتميز هذه المرحلة بتأثر العالم الغربي بالحضارة الإسلامية في عصر ازدهارها، وقد أظهر المسلمون منذ العصر العباسي انفتاحًا كبيرًا إزاء الحضارات الأخرى.

ويعبر ابن رشد عن هذا الانفتاح عندما يذهب إلى القول بأن دراسة كتب الأقدمين، تعد واجبًا إسلاميًا، ويضيف قائلًا: عندما نقرأ كتب الأقدمين نتأمل

(١) ينظر: ناصر الدين الأسد، الإسلام والتفاعل الحضاري ص (٧٢، ٧٣).

ما ورد فيها، فإن كان موافقًا للحق قبلناه وسررنا به وشكرناهم عليه، وإن كان فيها ما لا يتفق مع الحق؛ نبهنا عليه، وحذرنا منه وعذرناهم.

وقد تم الالتقاء بين الشرق الإسلامي والغرب بصفة أساسية في الأندلس وفي جزيرة صقلية. وقد تأثر الغرب بحضارة الشرق الإسلامي المزدهرة على الصعيدين الديني والعلمي بصفة خاصة. أما على الصعيد الديني، فقد كان الأثر سلبيًا تمثل في سيل جارف من الأساطير والافتراءات والأباطيل ضد الإسلام. ولكن الأمر كان على العكس من ذلك على الصعيد العلمي؛ فقد كان التأثير إيجابيًا. وقد أسهم فريدريك الثاني - حاكم صقلية والذي نصِّب قيصرَ عام ١٢٢٠م وكان من عشاق الحضارة الإسلامية - أسهم بنصيب كبير في نشر الثقافة العربية في أوربا. وقد أنشأ جامعة نابولي التي درَّس فيها فيما بعد القديس توماس الأكويني قبل دخوله إلى سلك الرهبنة. وأهدى فريدريك إلى جامعتي باريس وأكسفورد وغيرهما ترجمات لمؤلفات عربية. وقد تابع ابنه (مانفرد) جهود والده في تقديم ثمار الحضارة الإسلامية إلى الغرب.

وتجدر الإشارة بصفة خاصة إلى ريموند أسقف طليطلة من عام ١١٣٠ حتى عام ١١٥٠، فقد كان له الفضل في إنشاء مجمع للترجمة عهد برياسته إلى دومينيك جوند يسالفي. وقد أنجز هذا المجمع ترجمات لاتينية للعديد من المؤلفات العربية في الفلسفة والعلوم الطبيعية، وتمت - حينذاك أيضًا - أول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم عام (١١٤٣).

وقد كانت هذه الترجمات - التي توفَّر العلماءُ الغربيون على دراستها- تمثل الأساس الذي قامت عليه الفلسفة المدرسية. وقد بين كاراديوفو - في بحوثه - مدى سيطرة النزعة السينائية (نسبة إلى ابن سينا) اللاتينية في العصر الوسيط في أوربا. كما أكد العالم الفرنسي - رينان في كتابه عن (ابن رشد والرشدية) سيادة النزعة الرشدية اللاتينية في الفكر الأوربي الوسيط، وأثبت أن

هذه النزعة الرشدية قد أسهمت إسهامًا كبيرًا في انتشار حرية الفكر في ذلك العصر. وقد ظل التأثير الرشدي قائمًا في أوربا حتى القرن السابع عشر، وكان هذا التأثير بمثابة التمهيد للنزعة العقلية في أوربا في عصر النهضة.

(ب) المرحلة الثانية:

تبدأ المرحلة الثانية تاريخيًا بالحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر. وقد تعرف الشرق الإسلامي - حينذاك - على العالم الغربي، ولكن دون أن يكون لذلك أثر يذكر. ثم جاء بعد ذلك عصر الاستعمار. وقد شهد القرن التاسع عشر جهودًا أكثر من ذي قبل من أجل التعرف على الغرب.

(ج) المرحلة الثالثة:

المرحلة الثالثة هي المرحلة المعاصرة، وقد شهد العصر الحاضر انتشار المدنية الغربية والتكنولوجيا الغربية في كل مكان من العالم - تقريبًا - بما في ذلك العالم الإسلامي. ولكن العالم الإسلامي لم يأخذ بمنجزات الحضارة الغربية في كل جوانبها، بل كانت له بعض التحفظات في بعض الجوانب، وعلى سبيل المثال، نجد أن هناك مواقف متناقضة في العالم الإسلامي إزاء العلوم الاجتماعية الغربية؛ فهناك من يؤيد الأخذ بها بلا حدود ودون تحفظ، وهناك من يرفضها رفضًا تامًا. وقد ظهرت هناك محاولات راحت تبحث عن طريق وسط بين هذين الاتجاهين، وذلك في شكل جهود علمية نقدية. وهذه المحاولات العلمية النقدية ترتبط - بطبيعة الحال - ارتباطًا وثيقًا بمحاولات نقد ذاتي على الجانب الإسلامي[(١)].

حقيقة مهمة لا بد من إبرازها:

وفي الحق أن لغة الحوار الحضاري بين الحضارة الغربية والحضارة

---

(١) ينظر: الصلات الثقافية بين الإسلام والغرب، مجلة كلية أصول الدين العدد التاسع (١٩٩٢)، ص (١٨-٢٠).

الإسلامية إبان ازدهار كل حضارة من الحضارتين وتفوقها، كانت لغة شديدة التباين والاختلاف، فعلى حين امتازت لغة الحوار في الحضارة الإسلامية - إبان ازدهارها - بالتسامح، والعدل، والمساواة، والقدرة على تقبل الآخر والتعايش معه من أجل تحقيق صلاح الإنسانية، نجد في الحضارة الغربية حين انتقلت إليها الريادة والزعامة تصطنع لغة مغايرة فيها التعصب والاستعلاء والطغيان والظلم والتمييز العرقي والديني.

وقد عقد أحد الباحثين مقارنة بارعة بين لغة الحوار الحضاري الإسلامي ونظيره الغربي، تؤكد ما قررناه حيث يقول(١):

«لقد ظلت الحضارة الإسلامية تظلل العالم بروحها المؤمنة قرونًا طويلة، حفرت خلالها خصائص هذه الحضارة بأحرف من نور في شتى بقاع العالم التي حلت فيها، في فارس والهند شرقًا، وفي بلاد الشام وأوربا شمالًا، وفي الأندلس وشمال إفريقيا غربًا، ونشرت في ربوع هذه البلاد قيمًا ومعاني نعم بها أهلها فترة طويلة من الزمان؛ فعرفوا التسامح والعدل والإنصاف بعد أن شقوا أزمانًا طويلة بالظلم والتعصب والطغيان.

أفول هنا وازدهار هناك:

ثم دار الزمان دورته، وأخذ الغرب - بعلمائه ومفكريه - يتشرب روح هذه الحضارة ويتعلم منها، وأخذت مقاليد الأمور تنتقل رويدا رويدًا من أيدي المسلمين إلى غيرهم، وأخذ نجم الحضارة الإسلامية في الأفول ليحل محلها حضارة جديدة بروح جديدة تختلف في فلسفتها للعلوم وتوظيفها للعلم عن الحضارة الإسلامية، وواكب ذلك التحول الحضاري ظهور أنماط جديدة من القيم الاجتماعية والثقافية في أوربا، فلقد تحولت المسيحية - على يد مجموعة من ملوك أوربا وعلمائها - إلى روح صليبية لا تمت بأي سبب إلى

---

(١) ينظر: محمد السيد الجليند، لغة الحوار بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية (٢٤٣-٢٤٧).

النصرانية التي نزلت على عيسى - عليه السلام - ولا يربطها رابط بتعاليم المسيح عليه السلام، فالمسيحية التي بشر بها عيسى عليه السلام، حب وتسامح، وتواضع، وسكينة نفس، أما الصليبية الجديدة، فهي حقد وتعصب واستكبار وطغيان، ولقد تجسد هذا التحول الخطير الذي طرأ على المسيحية في مجموعة من الحملات الصليبية التي بدأ بها الغرب حروبه الصليبية على العالم الإسلامي في العصور الوسطى والتي ما زالت نيرانها لم تطفأ بعد مع تعدد الأشكال وتنوع الحملات، ولعل ما يجري في البوسنة والهرسك في وقتنا الحاضر من حروب التصفية والإبادة الجماعية للمسلمين، والتواطؤ العالمي مع الصرب ضد المسلمين، وما يقوم به الروس في الشيشان، أقول لعل في ذلك كله دليلًا على أن هذه الحروب الصليبية لم تخمد نارها بعد، رغم اختلاف أشكالها وتنوع حملاتها وتعدد مواقعها.

استطاعت أوربا أن تحتل معظم البلاد العربية والإسلامية خلال القرنين الماضيين، وأن تفرض سلطانها الثقافي ومفاهيمها الحضارية على المؤسسات الثقافية في البلاد التي احتلتها؛ فأخذت المفاهيم الأوربية في الفلسفة، والاجتماع، والاقتصاد، والقانون، والتربية، وعلم النفس تحل محل المفاهيم الإسلامية التي كانت سائدة في هذه البلاد، وأرادت أوربا أن تجعل من هذه المفاهيم - وهي محلية إقليمية أوربية ذات صبغة خاصة - مفاهيم عالمية، ينبغي أن تذعن لها عقول جميع المفكرين شرقًا وغربًا، وبمنطق فوقي استعلائي استعماري متكبر، ولجأت إلى أساليب رخيصة لفرض هيمنتها الثقافية على عقول البلاد التي استعمرتها لبسط نفوذها الثقافي، ورفعت سلاح التشهير بكل من عارضها أو قاوم نفوذها الاستعماري، ومن حقنا أن نشير هنا إلى بعض المقارنات بين لغة المسلمين في حوارهم مع الآخر يوم أن كان المسلمون أصحاب الكلمة الحضارية في العالم، ولغة الآخر في حواره معنا الآن بعد أن انتقلت لغة الحوار إلى أرضهم.

١- إن لغة الحوار الإسلامي كانت هي الكلمة الرشيدة ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون]، ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [آل عمران: ٦٤]، أما لغة الآخر مع المسلمين فكانت هي الرصاص والصاروخ والمدفع.

٢- كانت لغة المسلمين الحضارية في الأسلوب والمنهج، تحرير العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، أما لغة الآخر فكانت القتل والتنكيل، والحرق، والإبادة.

٣- كانت لغة المسلمين تملأ الأرض عدلًا «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا»، أما لغة الآخر فكانت تجسيدًا للظلم والطغيان.

٤- كانت لغة المسلمين تشع بالرحمة، والسكينة، والود، والإخاء «لكم ما لنا وعليكم ما علينا» أما لغة الآخر فكانت مملوءة بالقسوة والعنف والاستكبار، والاستعلاء.

ولا يتسع المقام هنا للتفصيل في بيان ذلك. ولكن أكتفى هنا بأن أدعو دعاة التغريب في بلادنا أن يراجعوا أنفسهم؛ ليدركوا الفرق بين لغة الحضارتين في الحوار.

ومن خلال النظرة المقارنة البسيطة بين ما فعلته أوربا في العالم إبان ما يسمى بعصر النهضة وحتى الآن، يتبين لنا مجموعة من الحقائق التي يؤكدها التاريخ:

١- فإذا كان ثوار أوربا قد حرروا الفلاح هناك من رق العبودية، فقد سلكوا عشرات الملايين في أفريقيا والهند في سلك العبودية والرق.

٢- إذا كانوا قد رفعوا شعار الحرية في بلادهم، فقد حكموا بالعبودية على الملوَّنين في قارات العالم.

٣- إذا كانوا قد رفعوا شعار الديمقراطية في بلادهم، فقد أحكموا قبضة الدكتاتورية الغاشمة على شعوب العالم الثالث؛ فاستغلوا شعوبه ونهبوا ثرواته، وأصبح العالم - في ظل هذه الحضارة - أشبه بالغابة التي لا تسمح بالعيش فيها إلا للأقوياء؛ وترتب على ذلك أن سادت المفاهيم والفلسفات الغربية، وأصبح العلم في لغة الحضارة الأوربية يختلف في فلسفته التحليلية وفي توظيفه عن فلسفته وتوظيفه في لغة الحضارة الإسلامية، فانقطع مسار العلم في فلسفته هناك عن خالقه، وتحولت وظيفته من خدمة الإنسان إلى خدمة طائفة معينة وقليلة على حساب بقية شعوب العالم كله، ولما ازدهرت في أوربا عوامل نهضتها، وتراجع زحف الحضارة الإسلامية؛ تبدلت لغة الحوار بين الشرق والغرب في الأسلوب والمنهج، وفي الأهداف والمقاصد، وفي مطلع القرن العشرين وبعد أن أحكمت أوربا قبضتها على العالم الإسلامي؛ أعلن مفكروها ما كان يدور بينهم في الخفاء، وصرحوا بما كانوا يضمرونه للعالم الإسلامي، ولن أذهب بعيدًا في توضيح هذه القضية التي لا تحتاج إلى اجتهاد أو إعمال ذهن، وإنما سأقتبس بعض النصوص لكبار المفكرين في أوربا في مطلع هذا القرن، وسوف توضح لنا هذه النصوص لغة الغرب في حواره معنا وأهدافه ومقاصده من محاورتنا.

يقول المفكر الفرنسي هانوتو بعد احتلال فرنسا للجزائر مباشرة: «لقد أصبحنا اليوم أمام الإسلام والمسألة الإسلامية وجهًا لوجه»، وكانت هذه العبارة عنوانًا لمقال كبير نشر مترجمًا بالعربية في جريدة المؤيد المصرية، وتولى الرد عليه جمال الدين الأفغاني في رسالته «الرد على الدهريين» ومما جاء في هذا المقال: «إنه لا يوجد مكان على ظهر الأرض إلا واجتاز الإسلام فيه حدوده منتشرًا في الآفاق، فهو الدين الوحيد الذي أمكن انتحال الناس له زمرًا وأفواجًا وهو الدين الوحيد الذي يفوق شدة الميل إليه والتدين به كل ميل إلى اعتناق دين سواه، إن هذا الدين قائم الدعائم ثابت الأركان في أوربا

عينها».

ثم يقول: «لقد صارت فرنسا في صلة مع الإسلام في كل مكان، بل صارت في صدر الإسلام وكبده، ليس الإسلام في داخلنا فقط، بل في خارجنا أيضًا قريب منا في مراكش، قريب منا في طرابلس الغرب، قريب منا في مصر... ولا يزال الهلال الإسلامي ينتهي طرفاه من جهة بمدينة القسطنطينية ومن جهة ببلدة فاس في المغرب الأقصى معانقًا بذلك الغرب كله.. إن هذا الدين القائم في الآستانة حيث عجزت المسيحية عن استئصاله من هذا الركن المنيع الذي يحكم منه على البحار الشرقية ويفصِل الدول الغربية بعضها عن بعض شطرين - إنه لابد من العمل على تفكيك تلك الرابطة التي تجمع بين المسلمين شرقًا وغربًا على سطح المعمورة؛ فتجعل منهم أمة واحدة وهي رابطة الدين، لا بد من العمل على إضعاف تلك الروح التي تحرك المسلمين من سباتهم، إن رابطة الإخاء الجامعة بين أفراد المسلمين شرقًا وغربًا، كفيلة بأن تجعل المسلم في شرق الأرض يهب لنصرة المسلم في غربها؛ فهي عامل مؤرق لفرنسا في المستعمرات التي تخضع لها».

هذا النص يحمل في كلماته أهداف ومقاصد الغرب كله من حواره معنا وليست فرنسا وحدها، وليس هانوتو إلا واحدًا من المشتغلين بحوار الغرب مع الشرق، قد تختلف العبارة والأسلوب، أما الهدف والمقصد فكان - ولا يزال - محل اتفاق بينهم جميعًا، ولقد أشار الإمام محمد عبده إلى هذا الخطر الاستعماري المحدق بالمسلمين في مطلع هذا القرن، وحذر مما يبيت للمسلمين في الخفاء ويحاك لهم في العلن حين قال:

«إن الإفرنج تأكد لديهم أن أقوى رابطة بين المسلمين إنما هي الرابطة الدينية، وأدركوا أن قوتهم لا تكون إلا بالعصبية الاعتقادية .. ولأولئك الإفرنج مطامع في ديار المسلمين وأوطانهم، فتوجهت عنايتهم إلى بث هذه الأفكار الساقطة بين أرباب الديانة الإسلامية، وزينوا لهم هجر هذه الصلة

المقدسة وفصم حبالها؛ لينقضوا بذلك بناء الملة الإسلامية ويمزقوها شيعًا وأحزابًا، فإنهم علموا - كما علمنا وعلم العقلاء أجمعون - أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا في دينهم واعتقادهم، وتسنى للمفسدين نجاح في بعض الأقطار الإسلامية، وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلًا وتقليدًا، فساعدهم على التنفير من العصبية الدينية بعدما نقدوها، ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس (الوطنية) التي يبالغون في تعظيمها واحترامها، حمقًا منهم وسفاهة، فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيئ لنفسه مسكنًا سواه، فنذر للإقامة بالعراء معرضًا لفواعل الجو وما تصول به.

هذا أسلوب من السياسة الأوربية أجادت الدول اختياره وجنت ثماره، فأخذت به الشرقيين لتنال مطامعها فيهم، فكثير من تلك الدول نصبت الحبائل في البلاد العثمانية والمصرية وغيرها من الممالك الإسلامية، ولم تعدم صيدنا من الأمراء والمنتسبين إلى العلم والمدنية الجديدة، واستعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم، وليس عجبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الإسلام، أن يميلوا مع هذه الأهواء الباطلة، ولكنا نعجب من أن بعضًا من سذج المسلمين - مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم في إيمانهم - يسفكون الكلام في ذم التعصب الديني، ويجهرون في رمي المتعصبين بالخشونة، والبعد عن معدات المدنية الحاضرة، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم ويفسدون شأنهم، ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المارقين، يطلبون محو التعصب المعتدل، وفي محوه محو الملة ودفعها إلى أيدي الأجانب يستعبدونها ما دامت الأرض أرضًا والسماء سماء، والله ما عجبنا من هؤلاء وهؤلاء بأشد من العجب لأحوال الغربيين من الأمم الإفرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الأفكار بين الشرقيين، ولا يخجلون من تبشيع التعصب الديني، ورمي المتعصبين بالخشونة، والإفرنج أشد الناس في هذا النوع من التعصب وأكثرهم على القيام بدواعيه ومن القواعد الأساسية في

حكوماتهم السياسية، الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم، هذا الهدف المعلن صراحة من حوارهم معنا بلا خجل ولا التواء.

إن من حقنا تاريخيًا وحضاريًا، أن نطلب المقارنة بين أهداف ومقاصد حوارنا مع الغرب، يوم أن كانت الحضارة الإسلامية تظللهم بروحها السمحة ومقاصدها النبيلة، ومقاصدهم وأهدافهم من حوارهم معنا الآن، أليس من حقنا أن نقارن بين ما فعله عمر بن الخطاب يوم أن دخل بيت المقدس، وكتب معاهدة الصلح بينه وبين الروم، وما تفعله الصليبية المعاصرة معنا الآن؟ ألم يطلب عمر من الجنود ألا يهدموا كنائسهم ولا معابدهم؟ أليس من حقنا أن نقرأ آداب الجهاد في الإسلام وكيف كان الرسول ﷺ يوصي صحابته ألا يقتلوا شيخًا هرمًا ولا امرأة، ولا طفلًا ولا يحرقوا بيتًا ولا زرعًا، ولا مستأمنًا، ونقارن هذا بما فعلته فرنسا المتحضرة في الجزائر - يوم أن كتب هانوتو هذا المقال - مبينًا أهدافه من حواره مع المسلمين . . .؟

لقد كانت أهداف الغرب المسيحي من إقامة حوار حضاري أو ديني مع الإسلام - استعمارية تبشيرية، وأظهر مثال على ذلك مؤتمر القدس سنة ١٩٣٥م الذي عقد تحت الحماية الإنجليزية، وقد افتتح المستشرق (زويمر) هذا المؤتمر التبشيري بخطبته التاريخية الشهيرة، وقد جاء فيها:

«أيها الإخوان الأبطال الذين كتب الله لهم الجهاد في سبيل المسيحية واستعمارها لبلاد الإسلام فأحاطتكم عناية الرب . . . لقد أديتم الأمانة التي نيطت بكم أحسن الأداء . . . وإن المهمة التي ندبتكم لها دول المسيحية في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن هذا هداية وتكريم لهم، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من دينه، ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله تعالى، وبالتالي لا صلة له تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها

الأمم في بناء حياتها؛ وبهذا تكونون - بعملكم هذا - طليعة الفتح الاستعماري في البلاد الإسلامية، وهذا ما قمتم به في المائة عام الماضية خير قيام، وهذا ما أهنئكم وتهنئكم عليه المسيحية . . . أيها الزملاء لقد أعددتم في بلاد المسلمين شبابًا لا يعرفون الصلة بالله، ولا يريدون أن يعرفوها، وأخرجتم بعضهم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشء - طبقًا لما رسمه له الاستعمار - لا يهتم بالعظائم من الأمور، ويحب الراحة والكسل ولا هم له في دنياه إلا الحصول على الشهوات . . .».

تلك هي الأهداف والغايات التي سيطرت على العقلية الغربية واصطبغ بها حواره معنا في مطلع القرن الماضي وما قبله.

وليس بالمجهول أن قبول الإسلام حوارًا هذه أهدافه لا يعني إلا وأد الحضارة الإسلامية، وطمس معالمها، وتشويه قسماتها الأصيلة وتحويلها إلى صورة شائهة كريهة.

وليس من الممكن أن نقيم حوارًا حضاريًّا نافعًا مع الغرب، إلا إذا أعرض الغرب عن هذه الأهداف وتلك الآليات في حواره معنا.

وأساس هذا الحوار بين الإسلام والغرب هو التفرقة بين الأفكار والمواقف وبين التعاون وتبادل العلاقات الثقافية، وكذلك لا بد في المجال الديني من التمييز بين العقائد والمعاملات، إذ يسع المرء أن يحافظ على آرائه، ومواقفه القومية والوطنية، وعقيدته الدينية، وفي الوقت نفسه يقيم مع من يخالفه هذه الآراء والمعتقدات ألوانًا من العلاقات السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، شريطة أن تخلص النوايا وتصدق الرغبات في تحقيق الخير لبني الإنسان دون تمييز أو عنصرية.

والقرآن نفسه يدعو إلى التواصل مع الآخر ويحث عليه، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ

إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وذلك هو الموقف الصحيح من الحوار مع الآخر وإقامة العلاقات معه شريطة ألا يكون من أحدهما اعتداء أو ظلم، وألا يكون من الطرف الثاني تفريط في عقيدته أو تنازل عن حقه، وذلك لكي يستقيم معنى التواصل والحوار والتبادل والتعاون والعلاقات المشتركة.

إمكانات الحوار وآفاق التعاون:

ويجيب الدكتور ناصر الدين الأسد عن السؤال المهم في هذا السياق وهو كيف نستطيع إقامة علاقات ثقافية بين العالم الغربي والعالم الإسلامي؟! قائلًا(١):

لا بد - أولًا - من البدء بالنظر فيما وراء الخلافات القائمة سواء أكانت ظاهرة أم مستترة، لتلمس أسبابها، ثم لتوضيح وجوه الشبه والتقارب التي يبنى عليها مستقبل العلاقات الثقافية. وربما كان من أوضح المواقف في هذا المجال وأصدقها - الموقف الذي اتخذته الفاتيكان في عام ١٩٦٩م حين أصدرت باللغة الإنجليزية كتابًا بعنوان «دليل الحوار بين المسلمين والمسيحيين» وهو مجموعة مبادئ وجهتها «لجنة شئون غير المسيحيين»

(١) ناصر الدين الأسد، مرجع سابق ص (٧٥-٨١).

بالفاتيكان إلى المسيحيين أنفسهم. وقد ذكر الكاردينال بول ماريلا رئيس تلك اللجنة حينئذ، في مقدمته للكتاب ما يوضح الهدف منه بقوله: «إننا نخص المسيحيين بخطابنا، فإنا نرغب في أن نحفز قراءة هذه الأوراق إلى بدء حوار مع هذه اللجنة ليصل كل منا - بالتعاون معًا - إلى تهذيب شعورنا بالاحترام للعالم الإسلامي. وبهذه الطريقة نستطيع أن نعد أنفسنا للدخول في حوار حقيقي مع المسلمين حين نخلص للحقيقة ونتجرد من الأنانية في صداقتنا.

ومن أهم ما جاء في هذا الكتاب - وكله مهم - ما ورد في الفصل الثاني بعنوان «يجب علينا أن نعمل على معرفة قيم الإسلام ومثله»، وفيه عرض موجز - ولكنه صحيح دقيق - لبعض مبادئ الإسلام. وكذلك ما جاء في الفصل الرابع بعنوان «كيف نعد للحوار»، ومن عناصر هذا الفصل: «علينا - نحن المسيحيين - أن نعترف بالمظالم التي ارتكبت في الماضي وعلينا أن نتخلص من أسوأ المشاعر.

ونحن إنما أردنا بإيراد هذه الاقتباسات أن نتخذ من ذلك الكتاب مدخلًا للإجابة عن موضوع هذه الدراسة، ويتضح من محتويات الكتاب أن الفهم الصحيح للفريق الآخر لتاريخه وحاضره ولتراثه وثقافته، هو أساس التفاهم وأنه لا تفاهم بغير فهم، ولا يكون الفهم صحيحًا إلا إذا تحلى بروح العدل والإنصاف والموضوعية؛ لأن كثيرًا من محاولات الفهم هي محاولات تؤدي إلى فهم سقيم قائم على الهوى والغرض، ثم يبث وينفث كما تنفث السموم فتسري في عقول الكثيرين ونفوسهم فتسممها، وتقف حواجز بين الشعوب تحول دون تفاهمها وتعاونها، ثم إن الفهم الصحيح لا يكفي وحده حين يكون كامنًا أو ساكنًا، ولا بد من الجهر به وإشاعته وإعلانه؛ ليصبح قادرًا على مد جسور الثقة وقنوات التقارب بين هذه الشعوب كما فعلت الفاتيكان في الكتاب الذي أصدرته علنًا؛ فدل على الصدق والشجاعة.

وعلى قيمة كل ما تقدم فإنه وحده لا يحقق الغرض إذ يظل محصورًا في

نطاق ضيق مهما يبلغ انتشاره، ولا يتاح له التأصيل والتأسيس إلا إذا توافرت له عوامل أخرى من أهمها: ما يمكن أن يسمى بتوازن المصالح فكما أن لدول أوربا مصالح في البلاد الإسلامية تحرص على تحقيقها، فإن لدول هذه البلاد الإسلامية مصالح كثيرًا ما تتجاهل وتهدر فينشأ من ذلك شعور بالظلم، وتسود المخاوف من إقامة أية علاقات؛ لأنها ستكون علاقات غير متوازنة بين قوي وضعيف فمعرفة هذه المصالح، والاعتراف بها، وإقامة تبادل متكافئ أو شبه متكافئ بينها، عامل مهم من عوامل بناء الثقة.

وفي مقدمة هذه المصالح مصلحة الأمة في تحقيق ذاتها، وفي حرية تصرفها في ثرواتها، وفي الاعتراف بلغتها وثقافتها وعقيدتها بعيدًا عن محاولات تذويب تلك الذات وطمس معالمها، وبعيدًا عن فرض ثقافة الآخر، وطغيان لغته ومصطلحاته ومفاهيمه.

ثم إنه لا يعقل أن تقوم علاقات طبيعية بين شعوب ينشأ أطفالها في مدارسهم على كتب تزخر بالطعن على الآخرين، وتتهمهم بأسوأ الاتهامات، وتنزل بهم من مصاف البشر إلى منزلة الوحوش، وتزرى بهم وبعقيدتهم وبحياتهم الاجتماعية والثقافية، وتحط من شأن مكانتهم في تاريخ الحضارة الإنسانية وما يلقنه التلاميذ في مدارسهم من الكتب وشرح معلميهم يرسخ في أذهانهم ونفوسهم، ويصاحبهم في مراحل حياتهم، فلا بد إذن - من تنقية هذه الكتب المدرسية مما فيها من معلومات أملتها روح التعصب والاستعلاء العرقي والنظرة الاستعمارية، فجاءت بعيدة عن الحقيقة والنظرة الموضوعية في معرض الحديث عن الشعوب الأخرى.

والحديث عن الكتب المدرسية يقود إلى الحديث عن كتب التاريخ عامة للصغار وللكبار، لجمهرة القراء وللمتخصصين. فهي كتب في أكثرها تحتاج إلى مراجعة وإعادة كتابة بحيث تلتزم الموضوعية وتتوخى الحقيقة. وتجيء

بعيدة عن الإثارة وزرع الأحقاد دون جور على وقائع التاريخ ولا حذف شيء من حقائقه، فتلك الوقائع أصبحت ملكًا للماضي الذي لا سبيل إلى تغييره، وحذفها عمل من أعمال التزوير والتزييف لا يقل نكرًا عن إقحام وقائع لم تقع، وإضافة أحداث لم تحدث، وإنما المقصود بالدعوة إلى الابتعاد عن الإثارة وتجنب زرع الأحقاد هو أسلوب العرض والتناول، وطريقة التعامل مع الوقائع والحقائق التاريخية. هذا إذا كانت آثار ذلك الماضي - بوقائعه - قد زالت ولم يعد لها أثر في حياة أبناء الحاضر.

فالحروب الصليبية مثلًا قد انقضت وزالت آثارها، وأصبحت لا تعدو أن تكون ذكرى تاريخية تدرس وتمحص، ويجتهد الباحثون من المؤرخين في بيان أسبابها، وشرح مراحلها، واستخلاص العبر منها، فهي حقيقة حدثت، ومن غير المقبول ولا المعقول أن يغفل ذكرها، وأن تحذف من سجل التاريخ، ولكن البحث فيها لا يجوز أن يكون عاملًا من عوامل إحياء الصراع وتأجيج الأحقاد. وهذا كله يختلف كل الاختلاف عن التأريخ لعدوان لا يزال قائمًا، وظلم لا يزال واقعًا. فإن من غير العدل أن ترتفع في هذه الحالة دعوات إلى نسيان الماضي، وتصفية النفوس، وبدء مراحل جديدة، فذلك الماضي - في الحقيقة - لم يصبح ماضيًا فهو لا يزال مستمرًا في صورة هذا العدوان الظالم الواقع في الحاضر، والذي يزداد استفحالًا وتفاقمًا.

ومثل هذه الدعوات إنما هي دعوات إلى تثبيت الواقع الذي فرضته القوة، وإلى اعتراف بالظلم وقبول به وليست دعوات إلى تصحيح الخطأ وإحقاق الحق.

ولا يقل تأثيرًا في نفوس الناس من تلك «الأفلامُ السينمائية» والبرامج التلفازية والإذاعية، والمقالات الصحفية، التي تشوه صورة الشعوب وحياتها الاجتماعية والثقافية، وتسخر من عقائدها فتقف حائلًا دون التفاهم والتقارب

بما تثير من عوامل النزاع وعوامل الصراع، والأمثلة على كل ذلك أكثر من أن تسرد في هذا النطاق الضيق. وحسبنا أن نستشهد هنا بمثالين.

أولهما: تلك المقالة التي نشرها جاك شاهين مستشار شبكة سي بي إس التليفزيونية لشئون الشرق الأوسط ومؤلف كتاب «العربي كما يظهره التليفزيون» وهي تتضمن عرضًا موجزًا للأفلام السينمائية والمسلسلات التليفزيونية التي أنتجتها هوليود من سنة ١٩٩٠م إلى سنة ١٩٩٦م، وأحدثها فيلم «قرار تنفيذي» وهي كلها تظهر العرب والمسلمين في صورة كاريكاتورية مشوهة، غالبًا ما تكون صورة الإرهابيين، وبالرغم من احتجاجات الهيئات العربية والإسلامية الأمريكية، واعتذار الشركات المنتجة اعتذارات شكلية، فإن شيئًا جديًا لم يحدث، ولم تقدم تلك الشركات أي برنامج يبرز صورة إيجابية عن العرب والمسلمين يمكن للمشاهد الأمريكي التعاطف معها، ثم علق جاك شاهين على ذلك بقوله . . . «إن صانعي الأفلام بإثارتهم مشاعر المشاهدين يستثيرون الأحقاد، ومتى ما اشتعلت نار الحقد فهي لا تبقي على شيء . . .» ويقول أيضًا: ويوحي منتجو الفيلم «فيلم قرار تنفيذي» من بدايته إلى نهايته أن العنف جزء لا يتجزأ من الدين الإسلامي والقرآن الكريم، وتحاول مشاهد الفيلم الربط ما بين الممارسات الدينية الإسلامية والإرهاب فيما يردد الإرهابيون صيحات: الله أكبر. . .

أما المثال الثاني: فتلك المقالة التي كتبها صموئيل هنتنجتون - أستاذ العلوم السياسية ومدير معهد جون أولين للدراسات الاستراتيجية في جامعة هارفرد، ونشرتها مجلة «فورن أفيرز» الأمريكية سنة ١٩٩٣م، بعنوان «صدام الحضارات»، وهي مقالة تحذر شعوبًا من شعوب بسبب من ثقافاتها، ويرى كاتبها أن ثقافات بعينها - وفي طليعتها ثقافة الإسلام وحضارته- هي مصدر الخطر وعامل التهديد لثقافة الغرب وحضارته، بل هي العدو الواجب محاربته والقضاء عليه، وقد نالت هذه المقالة منذ نشرها شهرة مدوية، حتى قيل: إنها

أصبحت الخطة الاستراتيجية للولايات المتحدة في مواجهة تحديات المستقبل. وتوالت عليها الردود المؤيدة والمفندة.

فإذا كانت هذه هي آراء جمهرة من الذين يتكلمون ويكتبون ويخططون وهم في مركز القوة، فهل يجدي أن يرفع الذين هم في مركز الضعف أصواتهم وينادوا بالتعاون والتفاهم بين الثقافات والحضارات؟ نعم إن ذلك مجد، بل هو واجب؛ لأن المنادين به هم أصحاب دعوة وحملة رسالة، ينطلقون من موقف إنساني يؤمن بالشعوب ومستقبلها، والتعاون بينها، على حين ينطلق الآخرون من موقف معاد للإنسانية مليء بالشك في الشعوب ومستقبلها، وهم لا يرون الحضارة والرقي إلا في أمتهم التي عليها أن تشن الحروب وتخوض أنواع الصراع لإخضاع الشعوب الأخرى دفاعًا عن الحضارة ومستقبل البشرية.

ومع ذلك فإن حملة رسالة التعاون والتفاهم بين الشعوب وأصحاب الدعوة إلى بناء علاقات ثقافية حقيقية بينها موجودون في كل مكان، وهم يجهرون بكلمة الحق، ويقفون مواقف العدل والصدق. وكما استشهدنا في مطالع هذا الحديث بالكتاب الذي أصدرته لجنة شئون غير المسيحيين في الفاتيكان، واقتبسنا بعض عباراته، فإن واجب الإنصاف يقتضينا أن نشير إلى رجل جهر بما يعتقد أنه الصواب، هو الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا، الذي وقف محاضرًا في مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية عن «الإسلام والغرب»، ومما يدخل في صميم موضوعنا أن نستشهد بالرجل وموقفه وأن نقتبس بعض عباراته وكان مما قاله:

. . «إن سوء الفهم بين الإسلام والغرب ما يزال مستمرًا، بل ربما أخذ يزداد إن سوء الفهم هذا بالنسبة للغرب لا يمكن أن يكون حصيلة الجهل . . إن الإسلام يحيط بنا من كل جانب ومع ذلك يستمر الشك والخوف. . إن الصراع يندلع نتيجة عدم القدرة على الفهم، والعواطف الجياشة التي تؤدي -

نتيجة لسوء الفهم - إلى الخوف وانعدام الثقة . . فالذي يربط بين عالمينا أقوى بكثير مما يقسمهما . . . لقد عانى حكمنا على الإسلام من التحريف الجسيم . . . أرجو أن تتذكروا أن دولًا إسلامية مثل تركيا ومصر وسوريا، منحت نساءها حق التصويت في نفس الفترة التي منحت فيها أوربا نساءها الحق نفسه، بل قبل فترة طويلة من اتخاذ سويسرا نفس الخطوة، وفي هذه البلاد تتمتع النساء منذ وقت طويل بالمساواة في مجال الأجور. . كما أن القرآن الكريم نص قبل أربعة عشر قرنًا على حقوق المرأة المسلمة في الأملاك والإرث، وبعض الحماية في حالة الطلاق وممارسة التجارة، وفي بريطانيا على الأقل كانت بعض هذه الحقوق غريبة حتى على جيل جدتي. . فالتطرف ليس حكرًا على الإسلام بل ينسحب على ديانات أخرى بما فيها الديانة المسيحية. . إذا كان هناك قدر كبير من سوء الفهم في الغرب لطبيعة الإسلام، فإن هناك أيضًا قدرًا مساويًا من الجهل بالفضل الذي تدين به ثقافتنا وحضارتنا للعالم الإسلامي . . إن هذين العالمين الإسلامي والغربي قد وصلا الآن إلى ما يشبه مفترق طرق في علاقاتهما، ولا يجوز أن ندعهما يفترقان، وأنا لا أوافق على مقولة: إنهما يتجهان نحو صدام في عهد جديد من الخصومة والعداء، بل إنني على قناعة تامة بأن لدى عالمينا الكثير يقدمانه إلى بعضهما».

وكل ما ذكرناه كلام قيل مثله وأضعافه في مناسبات كثيرة، ولم ينته إلى شيء حقيقي، سوى ما عبر عنه ذلك الكلام في معظمه من فكر سديد ونيات حسنة.

وهما لا يغنيان شيئًا في الواقع العملي إذا لم يرتبطا بتحقيق مصالح عملية أو معنوية، وقد نشط الحوار العربي في بدء عهده حين أدركت أوربا مدى قوة

النفط العربي، وشدة حاجتها إليه؛ فأخذت زمام المبادرة والاتصال بجامعة الدول العربية، والمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، وبعض الحكومات العربية، ودعت إلى تنظيم عدد من ندوات الحوار للتقارب والتفاهم، وكانت تلح عليها وتتابعها، ثم أخذت تحرص على نوع واحد من الحوار، وهو الحوار الاقتصادي، وتركز عليه، وتتغاضى عما سواه من أنواع الحوار، وخاصة الحوار الثقافي الذي كانت تحرص عليه المنظمات والدول العربية وتطلبه، ومع الزمن تراخت الجهود، وسقط الحوار كله ولم ينته - بعد عشرين عامًا - إلى نتائج ذات قيمة، وإن استمر مظهر الحوار وإطاره الخارجي بعد أن فرغ من مضمونه، حين فقدت أوربا اهتمامها الحقيقي به؛ لأنه لم يعد يحقق لها المصالح التي كانت تتوقعها في البداية، ولأن هذه المصالح قد تحققت من خلال الاتصال المباشر بالحكومات العربية بوسائل مختلفة، ونتيجة لتفرق الصف العربي.

إن تبادل المصالح هو الذي يحدث التوازن بين طرفي معادلة الحوار والتعاون، ولا بد لحدوث هذا التوازن من وجود قوة وراءه، والقوة الوحيدة للعرب في الوقت الحاضر تتمثل في التضامن وجمع الكلمة وتوحيد الصف، وبذلك تعود للحوار حرارته وقوته، ويصبح الحديث عن التعاون الثقافي حديثًا مؤديًا إلى الغاية محققًا للهدف، ولا يكون ذلك إلا إذا قامت بهذه الرسالة هيئة أو مؤسسة أو منظمة عربية مشتركة، أعضاؤها من ذوي الخبرة والتصور الصحيح، والرؤية المستقبلية السليمة، تدعمها الحكومات العربية دون أن تملي عليها هذه الحكومات علاقاتها المتقلبة فيما بينها ولا علاقاتها الخارجية، وعلى أن تترك لها حرية التحرك في نطاق المصالح القومية، وما ينطبق على الحوار العربي الأوربى ينطبق - من حيث الإطار ووسائل التنفيذ والتوجهات - على الحوار الذي ننشده بين المسلمين والأوربيين - إذ من غير الطبيعي أن نستمر في علاقات يواجهنا فيها غيرنا بمواقف موحدة أو متقاربة

وبتصورات وخطط واضحة ونظل نحن متفرقين دون وضوح في التصورات والخطط، بل ربما كنا أحيانًا نقبل على الندوات والمؤتمرات دون إعداد كاف ودون أن نعرف ما نريد، فتذهب مشاركتنا أدراج الرياح وحين يعود ممثلونا ووفودنا بشيء ذي قيمة - وما أقل ما يحدث ذلك - فإنه يضيع في غياهب الأدراج. أما بقيام هذه الهيئة أو المؤسسة المستقلة، فإنها تضع الخطط والبرامج ثم تتولى التنسيق والمتابعة. وكل عمل ليس له متابعة هو عمل منقطع يضيع دون الوصول إلى غايته، وما أكثر الأعمال التي تبدأ ثم لا تنتهي إلى شيء.

وفي الاتجاه نفسه يمضي الدكتور محمود حمدي زقزوق فيذكر أن إقامة حوار هادف بين الإسلام والغرب، واستمراره مرهون بأن يتوقف الغرب عن معاملته السيئة للإسلام، وإساءة الظن به وبأصحابه.

ولا ريب أن الإسلام قد أسيء فهمه في الغرب، فلا جرم كانت الجهود العلمية المبذولة لبحث الإسلام بحثًا موضوعيًا خاليًا - بقدر الإمكان - من الأحكام السابقة جهودًا مهمة ومطلوبة.

ويستطرد د/ حمدي زقزوق قائلاً[1]:

وينبغي أن يكون البحث الإسلامي متصلًا - بصفة خاصة - بالحاضر أي: أن يكون متفتحًا وقادرًا على التغلب على المشكلات القائمة والقيام بالمهام الموكولة إليه بطريقة ابتكارية في إطار الروح الإسلامي، وإذا كان هذا البرنامج يعد برنامجًا طموحًا، فإنه من ناحية أخرى يعد البرنامج الوحيد الممكن للبحث الإسلامي الذي يسعى إلى إحداث تقدم أصيل في المجتمع الإسلامي.

ويتصل بذلك ما يمكن أن يطلب - بحق - من علماء الإسلاميات الغربيين

(١) ينظر: الصلات الثقافية بين العالم الإسلامي والغرب ص (٢٣-٢٥).

الذين لا يعتنقون الإسلام ويدرسونه من الخارج، ويتمثل هذا الطلب في محاولة عرض الإسلام كما يتمثل ذلك في مصادره الأصلية وفي أفضل الأفهام الإسلامية، وعلى سبيل المثال، فإنه من الخطأ العلمي أن يقال: إن القرآن الكريم ألفه محمد ﷺ، والصحيح من وجهة النظر العلمية أن يقال: إن القرآن يعد - طبقًا للعقيدة الإسلامية - وحيا من عند الله أنزله على نبيه محمد ﷺ، كما أنه من الخطأ العلمي كذلك أن يقال: إن الله هو إله المحمديين، وأن يوصف الإسلام بأنه المذهب المحمدي أو بأنه دين عدواني.

وبصرف النظر عن ذلك فإن هناك عددًا كبيرًا من المثقفين الغربيين لا يزالون يقبلون مثل هذه المعلومات الخاطئة عن الإسلام ويعدونها من قبيل المسلمات بدلًا من إزالتها من الطريق، وهناك من جانب آخر بعض علماء الأديان المعاصرين الجادين الذين يلفتون نظر الباحثين في الأديان إلى أن الأحكام القيمية على هذا الدين أو ذاك بالصحة أو بالبطلان أمر لا يدخل في إطار بحوثهم العلمية.

ويعترف أحد المستشرقين المعاصرين المعدودين وهو وات watt بأن البحث الموضوعي في المائة والخمسين عامًا الماضية لم يستطع أن يقدم للعقل الغربي المعاصر صورة للإسلام خالية من التشويه الذي أصابها، وإذا كنا الآن في عالم كثرت فيه الصلات بين المسلمين والمسيحيين وازدادت أهمية عن ذي قبل؛ فإن هذا أمر يوجب على المرء أن يبذل قصارى جهده في توضيح الأسباب التاريخية لهذه الأحكام المسبقة عن الإسلام، والتي لا تزال تراود أذهاننا دون وعي.

وقد لاحظ المؤلف ذاته - أيضًا بحق - أن كل ما نجده أمامنا من خلط وقلب للحقائق فيما يتصل بالإسلام، يرجع إلى قصور في التكوين الثقافي.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن القضاء على هذا الموقف المتمثل في سوء الفهم

للإسلام، لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق الفهم الصحيح، وعندئذ يمكن أن تحل محل الصورة المشوهة للإسلام صورة أخرى واضحة غير محرَّفة، وهكذا نجد أن إزالة سوء الفهم والحيلولة دون عودته إلى الظهور مرة أخرى، تحتم علينا أن نبذل قصارى الجهد في سبيل ترسيخ فهم صحيح للإسلام على أساس علمي متين.

موضوعات الحوار:

يشهد المنصفون - من المسلمين والغربيين جميعًا - بأن الظروف في المجتمع المعاصر قد تغيرت تغيرًا كبيرًا، وأن الحقيقة الواقعية في أيامنا هذه تتطلب حلولًا واقعية للمشكلات التي برزت مؤخرًا، وقد أدرك العالم الإسلامي أن المشكلات الجديدة في العالم المعاصر، وأهمها مشكلات التكيف المتعقل - لا العشوائي - مع المدنية الغربية والتكنولوجيا الحديثة لم يعد من الممكن أن تحل عن طريق إجابات العلماء القدامى الذين لم يعرفوا عنها شيئًا، كما لا يمكن أن تحل عن طريق التقليد غير الواعي للأفكار الغربية الحديثة، وإنما السبيل إلى حلها هو التحلي بروح الإسلام مقرونًا باجتهاد جديد، تمامًا كما كان يفعل علماؤنا السابقون.

وعلى ذلك فإن موضوعات الحوار بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية تنصب بالدرجة الأولى على كل ما يحقق مصلحة للفرد والجماعة، يقول الأستاذ الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة عن موضوعات الحوار[(١)]:

إن كل ما فيه المصلحة للفرد والمجتمع يصلح أن يكون مجالًا للحوار، وكل ما يحقق المنفعة للمجتمع الإسلامي جدير بأن يكون موضوعًا للحوار: فلا يقتصر الحوار على موضوع دون آخر، ما دامت المنافع والمصالح هي

---

(١) ينظر: الحوار والتفاعل الحضاري (٨٩-٩١).

محوره الرئيسي ومجاله الحيوي، هو يتناول الموضوعات جميعًا ويشمل كل القضايا ذات الصلة بحياة المجتمع في حاضره ومستقبله، ويغطي شتى الموضوعات التي ترتبط بجميع مناحي الحياة سياسيًا واقتصاديًا، وثقافيًا وعلميًا، وتربويًا وفكريًا، ويستجيب للحاجات الضرورية التي تفرضها طبيعة العلاقات الثنائية والمصالح المتبادلة.

وموضوعات الحوار هي من السعة والشمول بحيث لا تحد بمدار أو مسار ما دام الهدف هو الوصول إلى الحقائق، وتحقيق الأهداف التي تعود بالنفع على الجميع.

ولا شك أن المجتمعات الإسلامية في المرحلة الراهنة في حاجة إلى أن ينفتح فيها الحوار على آفاق العصر، ولن يتيسر هذا إلا بسلوك إحدى السبيلين؛ أولاهما: الدخول في حوار مع العصر، بلغة العصر وبأسلوبه وبطرائقه، ليكون الحوار مدخلًا إلى القرن الحادي والعشرين بقدرات أكبر، وبإمكانات أوفر، وبفرص أكثر، وثانيهما: تحصين الذات بإصلاح أحوال الفرد والمجتمع إصلاحًا عميقًا، ومن النواحي كافة، حتى تسود روحُ الحوار العالمَ العربي الإسلامي، ويتعمق ما يصطلح عليه بـ (الحوار الوطني) من جهة، و(الحوار العربي- العربي) و(الحوار الإسلامي -الإسلامي) من جهة ثانية.

وينبغي أن يهدف (الحوار الوطني) إلى رصد عوامل تفاقم الأوضاع الاجتماعية واحتوائها، والعمل على تدعيم سبل الاستقرار والتنمية، وحتى تصبح الحوارات الوطنية في العالم الإسلامي بمثابة نقطة تحول وانطلاق إلى آفاق جديدة في واقعنا السياسي والاجتماعي وفي الميادين كافة، لا بد أن نحرص على الإدارة العلمية والدقيقة لهذه الحوارات، وفي اتجاهنا نحو هذه الغاية لا بد أن نفرق أولًا بين مفهومي (الحوار) و(عمليات التفاوض الجمعي)، وذلك تجنبًا للفوضى، والوقوع في المحظور، والسير في الاتجاه الخطأ.

وفي خدمة البشرية وإنقاذ العالم من الشرور والموبقات، للإسلام فيها حضور نافذ وأثر قوي عبر كل العصور، وقد أحسن الشيخ محمد عبده حين أطلق وصف (شريعة المسالمة) على مبادئ الإسلام وتعاليمه وأخلاقه التي تدور في هذا النطاق، وعد ذلك أصلًا سادسًا للإسلام.

وللإسلام مبدأ وموقف ورؤية إلى هذه المجالات جميعًا؛ فتعاليم الدين الحنيف تحث على التعاون من أجل كل ما فيه الخير والحق والفضيلة والشرف والعزة والكرامة، وفي سبيل تحقيق كل ما فيه السعادة لبني البشر كافة.

والحوار على هذا النحو الراقي، ومن أجل هذا الهدف السامي ضرورة من الضرورات التي يقتضيها انتظام سير الحياة على خطوط سوية، وتفرضها طبيعة العمران البشري، فالحوار حركة مطردة، وقوة مطردة، وقوة دافعة للنشاط الإنساني، وطاقة للإبداع في شتى مجالات الحياة، ووسيلة للنهوض بالمجتمعات، وهو سبيل إلى تحصين الشعوب والأمم ضد المخاطر التي تتهددها من جرّاء تصاعد الخلافات المتشعبة سواء حول قضايا العقيدة والفكر والثقافة والحضارة واللغة، أو القضايا التي ترتبط بشئون السياسة والاقتصاد والتجارة والأمن والحرب والسلم.

إن اللجوء إلى الحوار - بدلًا من الصدام - هو في حد ذاته تعبير عن نضج فكري ووعي حضاري، وتصميم على البحث عن أقوم السبل لتجنب الخسائر، ولتفادي المخاطر، وللتغلب على المشكلات، ولمعالجة الأزمات أو إدارتها بعقل متفتح وبضمير حي.

ولما كان أمام العالم العربي الإسلامي مهام مستعجلة لبناء الذات وتقدم المجتمع وازدهار الحياة فهو مدعو اليوم - ولعل أكثر من أي وقت آخر - إلى الانفتاح على آفاق العصر على امتداداتها، وإلى الدخول في حوارات جدية وهادفة مع دوائر عديدة، وعلى مستويات متنوعة، ليثبت للعالم كله جدارته

وهذا الضرب من الحوار، الذي يمكن أن نصطلح عليه بـ (الحوار الداخلي) هو خطوة أولى نحو الحوار مع الخارج؛ لأنه يقوي النسيج الوطني في كل بلد من بلدان العالم العربي الإسلامي من جهة ويكسب المجتمع مناعة أصبحت اليوم ضرورية للتعامل مع العالم المحيط بنا من جهة ثانية لأننا لا يمكن أن نفلح في الحوار مع العالم، ما لم نفلح في الحوار مع أنفسنا.

وفي هذا الإطار العام، يمكن أن يكون كل موضوع يهم الفرد والمجتمع موضوعًا للحوار، ولا ينبغي أن يطبع الحوار في كل المراحل بالطابع السياسي والثقافي والفكري فحسب، وإنما فعالية الحوار ونجاعته تكمنان في شموليته واستقطابه لجميع الموضوعات، وذلك بالرغم من أنه من طبيعة الحوار من حيث هو حوار ابتداء، أن يرتكز على الأسس النظرية للمسائل والقضايا المطروحة، فإذا انتقل إلى التطبيقات العملية، كان أقرب إلى العملية التفاوضية حسب المفهوم العلمي للمصطلح.

ولقد وجد العالم العربي الإسلامي نفسه ملزمًا بالاستجابة للدعوات التي صدرت من الغرب للدخول في حوارات شتى، وما دام الأمر كذلك؛ فإن انتقاء موضوعات الحوار صار أمرًا لا مناص منه، فعلى سبيل المثال حينما يتعلق الأمر بـ (الحوار الإسلامي المسيحي)، لا ينبغي الدخول في مناقشة مسائل الاعتقاد على حساب قضايا عملية تعود معالجتها بالنفع والفائدة على الطرفين، لا تهربًا، ولكن لأن مثل هذه المناقشة لا فائدة منها، وهي أقرب إلى الجدل العقيم والحِجاج السقيم، ولذلك فإن من هذه القضايا التي يجب التركيز عليها التعاون من أجل إقرار المبادئ والتعاليم الدينية المشتركة التي تحث على احترام الحياة الإنسانية، وعلى مراعاة حرمة الإنسان، وعلى السعي في الأرض من أجل الخير والأمن والسلام، وعلى محاربة الإلحاد والرذيلة والفساد والظلم والطغيان، وعلى دعوة الناس إلى قيم المحبة والتسامح والإخاء الإنساني، وهذه مساحات شاسعة للعمل المشترك من أجل الإنسان

واستحقاقه وأهليته للمساهمة في صياغة حضارة إنسانية جديدة تسود فيها قيم الخير والحق والفضيلة والتسامح والتعاون ومبادئ السلم.

أهداف الحوار:

لقد جسدت الآية القرآنية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، الأهداف بين أي حوار وتواصل بين الحضارات؛ إذ اللفظ القرآني «التعارف» يحمل من معاني الخير والصلاح، والأمن والسلام، والرخاء والطمأنينة للناس - كافة - الشيء الكثير.

وتلك المعاني هي الأهداف الحقيقية للحوار النافع، والتعارف في هذا السياق يتسع ليشمل التعاون والتعايش، وكل ألوان العمل الإنساني المشترك، لما فيه الخير والمنفعة للإنسان.

ومن الجدير بالذكر هاهنا، أن أهداف الحوار يجب أن تنطلق من الإنسان نفسه وترتبط بشئونه وقضاياه، وذلك حتى لا يفقد الحوار قيمته وأهميته وموضوعه الهادف المفيد.

ومن العسير علينا في هذا المقام أن نقوم بحصر هذه الأهداف جميعها، ولكن يسعنا أن نسوقها إجمالًا فيما انعقد عليه إجماع البيئة الدولية على أنها أهداف إنسانية نبيلة، ومثال هذه الأهداف ونموذجها المعبر هو ما ورد في إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي، فقد نص هذا الإعلان على الأهداف التالية:

١- نشر المعارف وحفز المواهب وإثراء الثقافات.

٢- تنمية العلاقات السلمية والصداقة بين الشعوب، والوصول إلى جعل كل منها أفضل فهمًا لطرائق حياة الشعوب الأخرى.

٣- تمكين كل إنسان من اكتساب المعرفة، والمشاركة في التقدم العلمي

الذي يحرز في جميع أنحاء العالم، والانتفاع بثماره، والإسهام من جانبه في إثراء الحياة الثقافية.

٤- تحسين ظروف الحياة الروحية والوجود المادي للإنسان في جميع أرجاء العالم.

وكما هو شأن التعاون الثقافي الدولي، فإن على الحوار - بوجه عام - أن يبرز الأفكار والقيم التي من شأنها توفير مناخ صداقة وسلام، وأن يستبعد جميع مظاهر العداء في المواقف وفي التعبير عن الآراء، على أن يتوخى الحوار أيضًا النفع المتبادل لجميع الأمم التي تمارسه، ويسعى في جهد مشترك مع الأطراف جميعًا للقيام بعملية حضارية كبرى، هي تصحيح المفاهيم الخاطئة التي تسود المجتمعات وتعوق مسيرة التعاون والتقارب والتفاهم والحوار.

ومن شأن هذا الحوار أن يثمر التفاهم والتعاون بين المجتمعات، ويفضي إلى تقارب الثقافات، ويسهم بشكل فعال في تلاقي الحضارات، وهو ما يصطلح عليه بالتفاعل الحضاري الذي يدعم الاتصال والتعاون بين الدول، ويعين على مواجهة تحديات العصر ومشكلاته.

وقد عرض الدكتور عبد العزيز التويجري لأثر التفاعل الحضاري في بناء الحضارة الإسلامية فقال:

لقد قامت الحضارة الإسلامية على أساس التفاعل الحضاري، فهي - لهذه الخاصية - ثقافة حوار في المقام الأول، أخذت عن الحضارات السابقة، واقتبست من ثقافات الأمم والشعوب التي احتكت بها، وصهرت حصيلة هذا كله في بوتقة التفاعل الحضاري، فكانت حضارة الإسلام، ولا تزال مثالًا نادرًا للتفاعل بين الحضارات.

ولقد كان لحيوية الحضارة الإسلامية وقوتها الذاتية الدافعة لها إلى التطور

والتقدم والإبداع، الأثر القوي في نقل روح المدنية إلى العالم الغربي، وهو الأمر الذي يعترف به ويشهد له معظم الكتاب والمؤرخين والمفكرين الأوربيين الذين برئوا من الهوى والغرض، وكتبوا بإنصاف عن خاصية التفاعل الحضاري في الحضارة الإسلامية، وهذا كرستوفر دوسن، يذهب في كتابه (تكوين أوربا) إلى أن الحضارة الإسلامية احتفظت بمركز الصدارة منذ أوائل العصور الوسطى فصاعدًا، لا في الشرق فحسب، بل كذلك في غرب أوربا؛ إذ نمت الحضارة الغربية في ظلال الحضارة الإسلامية التي هي أكثر منها رقيًا وقتذاك، وكانت الحضارة الإسلامية العربية لا البيزنطية، هي التي ساعدت العالم المسيحي في العصور الوسطى على استرداد نصيبه من التراث اليوناني العلمي والفلسفي.

ولعلنا لا نغالي إذا أكدنا هنا على أن الإسلام، وهو دعوة الله إلى الناس كافة ورسالته - سبحانه - إلى العالمين، هو الدين الذين يدعو إلى التفاعل الحضاري دعوة صريحة قوية، ويحث عليها حثا، على اعتبار أن الحوار الذي نادى به الإسلام هو في طبيعته وجوهره ورسالته تفاعل حضاري، كما لا نحتاج إلى أن نقول إن قاعدة التسامح التي يقوم عليها الإسلام فتحت أمام الأمة الإسلامية السبيل إلى سبل الاحتكاك الواسع بالأمم والشعوب، وشجعت الحضارة الإسلامية على التفاعل مع الثقافات والحضارات جميعًا، ونعني بالتسامح الديني - تحديدًا - أن تكون لكل طائفة في المجتمع الإسلامي الحرية في تأدية شعائر دينها، وأن يكون الجميع أمام قوانين الدولة الإسلامية سواء، وإذا نظرنا إلى الإسلام من حيث مبادئه وتعاليمه الأصلية، نجد أنه هو أرقى الأديان في تحقيق مبدأ التسامح الذي هو القاعدة الأولى للتفاعل الحضاري.

إن التفاعل الحضاري يستند في مفهوم الفكر الإسلامي، إلى مبدأ التدافع الحضاري، لا الصراع الحضاري، وهو المبدأ القرآني المحض، الذي نجد له

أصلًا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] ونقف على معنى آخر في قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

فالتفاعل - إذًا - في المنظور الإسلامي هو عملية تدافع لا تنازع، وتحاور لا تناحر، والتفاعل حياة والتصارع فناء، والتفاعل الحضاري عندنا حوار دائم ومطّرد، ينشد الخير والحق والعدل والتسامح للإنسانية قاطبة، ولا يسعى في الأرض بفساد.

رسالة التفاعل الحضاري في عالم متغير:

إن العلاقة المتينة بين الحوار وبين التفاعل الحضاري، تقتضي أن يكون ثمة ترابط محكم بين أهداف الحوار، وبين غايات التفاعل الحضاري، وإذا شئنا الدقة قلنا إن التفاعل الحضاري عملية تكاملية تتم بين الطرفين، وتمتزج فيها عناصر شتى، وتؤدي في النهاية إلى حالة من الانسجام والتناغم، وهي ليست عملية عشوائية لا إرادية، ولا هي ضرب من الترف الفكري، وإنما هي فعل ينتج عن التقاء إرادتين تسعيان إلى تبادل التأثير في المحيط الاجتماعي على تنوع مناشطه، وتشعب ضوابطه.

من أجل هذا كله؛ فإنه ينبغي أن يكون الحوار والتفاعل بين الثقافات والحضارات، حوارًا هادفًا مؤثرًا، وتفاعلًا فاعلًا وبناءً، ويجب أن يقوما على قاعدة الاحترام المتبادل بالمعنى الأخلاقي الرفيع، وبالمدلول الحضاري السامي، كما يجب أن يقوم الحوار والتفاعل بين الثقافات والحضارات على قواعد اجتمع البشر على صحتها وسلامتها، وانعقد إجماع الإنسانية على اعتبارها القانون الذي يحكم المجتمع الدولي، حتى يكون الحوار والتفاعل الحضاري في هذا الإطار مستندين إلى قواعد القانون الدولي، بحسبان هذه القواعد هي القواسم المشتركة بين جميع الشعوب والحكومات في عالمنا المعاصر، وهي المرجعية المتفق عليها، بينما المرجعيات الدينية والثقافية

والحضارية جميعًا هي محل اختلاف وخلاف، وموضع تنازع ونزاع، بل هي مصدر صراع نراه - نحن أبناء الثقافة والحضارة الإسلامية ومن وحي هذه الثقافة وهذه الحضارة - تدافعًا بين الشعوب والأمم، وبالتالي بين الثقافات والحضارات.

وهكذا يصير الحوار المفضي إلى التفاعل الحضاري، فعلًا إنسانيًا مؤثرًا في حركة التاريخ، وعنصرًا مساعدًا على استتباب الأمن والسلام على الأرض وقوة دفع لاستقرار الحياة الإنسانية، ولازدهارها ولرقيها.

إننا لا نريد حوارًا وتفاعلًا بين الثقافات والحضارات، هما مجرد ترف فكري، ولا نريد حوارًا وتفاعلًا بين الثقافات والحضارات لا تكون لهما انعكاسات على الواقع المعاصر، ولا تصل آثارهما إلى دوائر صنع القرار، ولا نريد حوارًا وتفاعلًا بين الثقافات والحضارات ينطلقان من الإحساس بالتفوق العنصري، وبالاستعلاء الحضاري، ويصدر عن روح الهيمنة الثقافية.

إنه ينبغي أن يكون هدفنا الرئيسي من السعي إلى إقامة الحوار الذي ينتج عنه التفاعل الحضاري بين أهل الثقافات والحضارات، ومن هذه المنطلقات تحديدًا إشاعة قيم التسامح بالمعنى الراقي للتسامح، كما يفهمه المؤمنون بالله، والمؤمنون بوحدة الأصل الإنساني، وبوحدة المصير الإنساني أيضًا.

وهدفنا من إقامة الحوار المحقق للتفاعل بين الثقافات والحضارات، هو التعارف بالمعنى القرآني السامي، الذي هو الأصل في تعامل الشعوب والأمم بعضها مع بعض، وفي تشارك بعضها مع بعض، وفي تعاونها على الخير وعلى العدل والحق والأمن والسلام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

وأعتقد أن هذا الضرب من الحوار بين الثقافات والحضارات، هو الأمل

المنشود، وهو الترياق الشافي من الأمراض والعُقد الثقافية والفكرية والحضارية، التي تتسبب في الاختناقات السياسية، وتؤدي إلى الأزمات الاقتصادية، وتخلق الاضطرابات الاجتماعية، وهو رسالة التفاعل الحضاري في عالم سريع التغير، مقبل على آفاق جديدة سيكون على الإنسانية فيها أن تتقارب بوتيرة أسرع، وأن تتبادل الأفكار والآراء والثقافات في إطار من المرونة والسماحة، مما يقتضي أن يكون العالم العربي الإسلامي جاهزًا ومستعدًا للمشاركة العملية النشيطة، ولممارسة الفعل الحضاري المؤثر، ومن تحقيق التفاعل الحضاري الذي يضمن المصالح العليا للأمة الإسلامية.

إن التفاعل الحضاري في عالم يبحث عن نظام جديد لم يهتد إليه بعد، محكوم عليه أن يكون تفاعلًا إيجابيًا، ويمكن في هذا السياق أن نستخدم كلمة «تثاقف» للدلالة على تفاعل إيجابي عند الاحتكاك بين الثقافات، بحيث إنه عندما تدخل ثقافتان وحضارتان في اتصال واحتكاك، فإذا كانت السمات الثقافية التي يجري تبادلها تتوازن وتحافظ كل منهما على هويتها وحركيتها الذاتية الخاصتين بعد إدماج العناصر الأجنبية واستيعابها، يتحقق بذلك تثاقف أو تفاعل ناجح، ولكن عندما لا يتجسد الاتصال في تبادل متوازن، بل في تدفق في اتجاه واحد، فإن الثقافة المتلقية تكون مغزوة ومهددة في وجودها ذاته، ويمكن اعتبارها في هذه الحالة ضحية عدوان حقيقي، وإذا كان العدوان - فوق ذلك - ماديًا فهذه هي الإبادة الجماعية، أما إذا كان العدوان رمزيًا فإن الإبادة الجماعية لا تكون سوى ثقافية فحسب، أي: إبادة اثنية، وهي أعلى مراحل محو الثقافة.

ولن ترضى الأمة الإسلامية أن يكون التفاعل الحضاري غزوًا للثقافة الإسلامية، ومحوًا للحضارة الإسلامية، وذوبانًا في ثقافات الأمم، واندماجًا في حضارات الشعوب.

إن العالم العربي الإسلامي يمد جسور التعاون والتقارب والتفاعل مع

الأديان السماوية والثقافات والحضارات جميعًا، دون استثناء، وهو يتطلع إلى مواقع له مشرفة في القرن الحادي والعشرين، ولن يرضى أن يكون ضحية تغريب العالم - بأية حال من الأحوال - من خلال تفاعل حضاري فاقد لمعنى العطاء المتميز والاستيعاب الذكي، والمنفعة المتبادلة[1].

نخلص مما سبق إلى أن الحوار الحضاري هو النمط الأرقى من الحوارات بين الفئات المتباينة المثقفة من بني البشر، وهو عبارة عن مجموع العمليات التفاعلية التي تتم على مختلف المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والفنية والاجتماعية والإعلامية.

ومن الضروري أن يكون للحضارة الإسلامية مشاركة فاعلة ومؤثرة في جميع أنماط الحوار، ولا سيما الحوار الحضاري الذي يعد المدخل الأساسي وهو ما سميناه بالتفاعل الحضاري.

* * *

(١) ينظر: الحوار والتفاعل الحضاري، عبد العزيز التويجري (٩٢-٩٦).

فهرس محتوى الكتاب

BANĀT-U-L-ᵓAFKĀR
FĪ ADABUL-MONĀQAŠA WAL-ḤIWĀR

Ethics of debate and discussion

BY

Dr. Majdi Bā-Sallūm

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
Beirut-Lebanon